محمد صوف

يد الوزير



إصدارات أمنية للإبداع والتواصل الفني والأدبي

السلسلة الروائية

9

يد الوزير

محمد صوف

منشورات أمنية للإبداع والتواصل الفني والأدبي

رقم الكتاب : 9 السلسلة الروائية

الكتاب : يد الوزير
تأليف : محمد صوف
الناشر : إصدارات أمنية للا بداع والتواصل الفني والأدبي
الغلاف : لوحة لمحمد أجديد عبد الكريم
السحب : أركراف (الدرالبيضاء)
الايداع القانوني : 2006/2154
ردمك : 7 – 0 – 8730 – 9954
التوزيع : سابريس

الاخراج الفني: ندير عبد اللطيف

إصدارات أمنية للابداع والتواصل الفني والأدبي

عنوان المراسلة

228 شارع محمد الخامس الطابق 6 رقم14 الدار البيضاء

- Nadir.artcom@yahoo.fr

I

أنت تعرفين أني قاسية على نفسي منغلقة داخل عالم من القيم الرافضة لمتع الحياة.. لمتني مرارا على سلوكي و طلبت مني أن أنفتح أكثر.
كنت دائما تعاتبيني على صمتي.. لا أتكلم إلا لكي أرد على سؤال أو لكي أقول القليل.
كنت تقولين إني حافلة بالمبادرات و لا مبادرة مني تطفو مني على السطح.
و تضحكين أتذكرين وصفك لي بجملة مضادة ؟
ما لا تدركينه يا عزيزتي هو أني لا أقرر في شأني.. و لا أختار حتى.. كثيرة هي تصرفاتي العفوية,,
ليس هذا موضوع رسالتي و لكني أمامك أفجر صمتي على الورق.. لست أدري لماذا.. هل أنت مرآتي ؟
لا تجيبي على هذا السؤال,, أعفيك من الرد عليه.. فالرد عليه معاناة أرفضها لك ؟
موضوع رسالتي يا عزيزتي هو أنا. أعرف أنك ستبتسمين و أعرف أن أفكارا ما الآن ستعبر ذهنك..
و مع ذلك سأستمر في الكتابة.. لو كنت أمامي الآن لتوقفت فورا عن القول.
أنا أخاف مني لأني لا أفهم هواجسي و لا أفهم عواطفي حتى.. أخاف من رتابة أيامي, و مع ذلك أتمسك بها.. حتى وقوفي أمام اللوحة أصبح

يرعبني و كلما شرعت أرسم أجد جرأتي تتخلى عني في النظر إلى عيني شخصيتي. . و كأن روحا تنفتح فيها . أشعر بحفيف الأنفاس يخرج من الألوان.. أجدني خائفة و مفتونة في ذات الوقت.
أضع الفرشاة و أفر إليه ..
ستبتسمين مرة ثانية. . لك ذلك حتى ترضي. أما هو فلا أرى ابتسامته و لكني أشعر بها. . هل سبق لك أن شعرت بابتسامة دون أن تريها ؟
يا إلهي !
إياك أن تتصوري أني أحبه . . أنا أومن به و أطمئن إليه لأنه يعيد الطمأنينة إلى نفسي بمجرد ابتسامة أشعر بها و لا أراها..
أما الحب.. هذه العاطفة المدمرة فلندع الحديث عنها إلى رسالة لاحقة.
قلت أهرب إليه. . أرتشف ابتسامته و أعود إلى بيتي حيث أنتظر شيئا ما أحسه و أجهله..
ما أن أعود إلي بيتي حتى أفقد علاقتي بالأشياء و أدخل في بحث مضن عم أريد..
عبثا ..
أقف أمام المرآة و أراني أعيش على هامش الحقيقة.. الآن ستقولين بصوت مسموع..
- قولي شيئا أيتها الغبية ..
صحيح أن ما كتبته حتى الآن مجرد كلام أجوف. تمعنين النظر داخله و لا ترين غير الفراغ لكنه الجسر الذي علي أن أعبره لكي أصل إلى ما أريد قوله..
أنا جبانة ..
و جبانة لأن في حياتي سلمان. أنت تعلمين أنه دخلها على متن عقد وثقه شاهدا عدل وصمت كان علامة للرضى. كنت كجل النساء أؤمن أن قدر المرأة رجل و بيت و أطفال..
أليس جبنا أن تخرجي من ذاتك و تحتمين خلف جدار الامتثال ؟ ..
و أنا جبانة مرة ثانية لأني تعلقت أو أعتقد أني تعلقت بهذا الرجل الهادئ الذي ما أن يغرس نظرته الصامتة في نظراتي حتى أفقد توازني..
يزيد ..

هذا اسمه .صحيح أنه اسم خرج من التاريخ
و لكن صاحبه كائن و موجود.. مرة ضحك و قال أنا يزيد الناقص. أنيق في وقفته .هل رأيت سنونو يحلق؟ أنا أعتقد أنه يمتلك كل الصفات التي يجب أن تتوفر في الرجل. كلما طلبت منه أن يحدثني عن نفسه رفض..
دائما وحيد. ككل ذي قيمة ..
كيف عرفت يزيد ؟
هذا السؤال يدور في خلدك الآن ؟
سأشحن غرورك بالرضى. سأرد عليه قبل أن تطرحيه في رسالتك القادمة.
لن أقول إنني أضعت محفظتي و وجدها هو وأعادها إلي, فكانت العلاقة. يكفي أن تري ذلك في الأشرطة. كان كلما أمر من أمامه أشعر بنظراته تتسلقني و مرة التقت نظراتنا فشعرت بالشحوب يداهمه و ابتسمت. لا أعتقد أنه رأى ابتسامتي, و من ذلك اليوم لم أعد ملك نفسي..
و تماديت في اقتحام نظراته و تمادى هو في الشحوب. كانت لعبة لذيذة.
ثم جاء السلام و الكلام ..
الكلام أراني شخصا غير الذي تصورته ..
ما يثيرني فيه هو أنه لا يرغب في شيء و لذلك فهو لا يمارس الدهاء للحصول على ما يريد.. ليست لديه رغبات يسعى إلى إرضائها.
ثمة تبرير لقدرته على التجرد من أي شيء ..
أتعرفين شارع الحسن الثاني ؟ حاولي أن تعيديه إلى ذهنك. أعيدي إلى ذهنك تلك العمارة الزجاجية الشاهقة. قربها مقهى. اسمه مقهى السقيفة . على رصيفه يجلس يزيد.. ينتظر مروري و أنتظر شحوبه.. نتصافح.. وينصرف..
ينصرف هو لأجد نفسي فريسة لرغبة مبهمة.. اضحكي.. أنا أعرف أنك ستضحكين على الرغبة المبهمة.. ما علينا.
أتابع.. أحاول أن أخنقها - أقصد الرغبة - فتزداد اشتعالا.
أنا يا عزيزتي أعيش في جحيم..
الغريب أني لا أشعر بالذنب و أعتقد أني على أهبة لأن أتمادى في الحلم به و معه. و أنا طفلة كنت أروي لنفسي قصصا من صنع خيالي و كنت

أحلم أني بطلة ما أبدعت.. و عندما كبرت و أصبحت زوجة سلمان وجدتني أكرر إبداعي القديم بطريقة ما.. أمر من أمام المقهى لا لشيء إلا لألعب دور البطلة..

لم يعد الحلم يكفيني ..

أصبحت ساهمة و لاحظ سلمان ذلك.. و لست بحاجة لأن أتكلم معه لأحس بضيقه و تساؤلاته التي لم تعلن عن نفسها بعد. أصبحت أتلذذ بالتفكير في يزيد.. أفتح لخيالي آفاقا معه.. لكنه خلق لينظر و ليمارس رياضة المشي وليصمت و ليشحب عندما يراني..

فيه من الخجل و الأدب ما يكفي ليجعلا منه شخصا باردا.. لا حرارة فيه.. و أنا أحترق.. و فيه من الحزن ما يكفي ليغرقني بنظراته الجريحة.. لعلي أهذي. لعل ما أراه مجرد وهم يرافقني في حركاتي و سكناتي..

حكايتي لا تنتهي هنا ..

أتذكرين عامر ؟ بالطبع لا .. و ستذكرينه إذا عادت إلى ذهنك هذه الحكاية ..

الطريق مغلقة.. لا أحد يمر.. رجال الأمن يملئون جنباتها و يمنعون الراجلين من العبور إلى الجانب الآخر.. آخرون في مدخل الطريق يحولون اتجاه السيارات والدراجات إلى طرقات أخرى.. زرابي مبثوثة عند مدخل البناية. شخصيات ترتدي ميزانيات أسر و... تلقي على معاصمها نظرات قلقة. كلهم ينتظرونه.. لكنه لم يأت.. رجال الصحافة بالآلات و أجهزة التسجيل و الأقلام ينتظرون ..

مرت ساعة.. ساعتان. و هم ينتظرون.. كل الحاضرين كانوا على صفيح ساخن.. ثم بدت شاحنة تقتحم الطريق.. أحدث ظهورها رجة.. ماذا وقع ؟ المسؤولون عن الأمن يتحدثون جميعا في أجهزتهم.. لم يفهموا. والشاحنة تقبل نحو الزرابي المبثوثة. انفتح بابها و نزل عامر. كان يضحك. انحنى على أول المستقبلين و همس :

-لقد نسيت التظاهرة.. و كان علي أن أحتجز هذه الشاحنة لأصل ..

الآن تذكرينه.. أنا متأكدة من ذلك. و الآن يحضرك من نوادره الكثير..

نعم.. هو..

هاك هذه الحكاية ..
قلت ذلك الصباح الخريفي سأفطر في المقهى لأرى يزيد ثم قلت سأصعد إلى البرج الزجاجي لأقابل مدير مؤسسة للإشهار و أقدم له عرضا قد يهمه ..
و هذا ما حدث ..
في المقهى قابلت يزيد.. في دقائق أعطاني من الحنان الصامت زاد يوم كامل.. لا تبتسمي فأنا لا أبالغ..
نسيت.. لست أدري لماذا أنسى سلمان كلما حضر يزيد.. أيهما الماء و أيهما التيمم ؟
سلمان كان سيلحق بي لنذهب معا عند مدير المؤسسة الدعائية التي ستحتضن معرضا كنت أعتزم تنظيمه.
في حضرة يزيد نسيت سلمان و نسيت الموعد. إنها علامات لا تخطئ ..
تصوري أن الجلسة كانت جميلة لدرجة أني رغبت في البكاء..
هل تصدقينني إذا قلت إن :
ميعادي مع مدير المؤسسة كان سببا ملفقا لأراه.. و عندما رأيته لفني في صمته البليغ و احتضنني بنظراته الثرية بالعطاء و لم يقل أكثر من كلمتين.
و عندما جاء سلمان كنت واقفة أنتظر المصعد. أنت تعرفين أن البرج الزجاجي مليء بالشركات والمؤسسات و فيه شقة واحدة تشغل طابقا بأكمله يقولون إنها لأحد أعيان البلد يمارس فيها شهرياراته.
هذا الأحد الأعيان رأيته بومذاك.. لم أنتبه إلى الناس الذين كانوا ينتظرون المصعد عندما شرعوا ينفضون من حولي..لا . لم يتأهب أحد للصعود و هذا معناه أن المنتظرين كانوا يعلمون أنه إذا حضر هو بطل المصعد على الجميع . لم أدرك إذ ذاك أن الرجل يحتكر المصعد وحده و يرفض أن يقاسمه أحد من الغوغاء الصعود.. اندفعت و اندفع معي سلمان تحت نظرات استغراب الجميع.. دخل الرجل و ظل يتأملني بنظرات لا تقول شيئا.. ثم حرك رأسه و قال..
- لا بأس ..

فكرت لحظتها في الرأي السائد عن الرجل . فكرت في أنه ليس متسلطا أو متجبرا كما تصورته. يكفي أن أنظر إليه بعين الرضى لأرى مناقبه . لمت نفسي و كمن أرادت أن تكفر عن ذنب ابتسمت . ماذا كنت ستفعلين لو كنت مكاني؟ مسؤول حكومي تقتحمين عاداته و برفض أن يرد الصاع ألا يستحق ابتسامة امتنان . أليست الابتسامة أضعف الإيمان ؟
ثم حرك رأسه, و أضاف
- لا شك أنكما تأتيان هذا البرج لأول مرة ..
حرك سلمان رأسه بالإيجاب, لكن الرجل كان ينتظر الجواب مني أنا ..
ثم تحرك الرجل نحوي .. نعم نحوي ..
ماذا تراك تتصورينه فاعلا ؟
ابتسم ؟
نسيت أن أقول لك أنه كان يدخن سيجارة أمريكية شقراء وعندما كان يتحدث لم يكلف نفسه عناء إزالتها من بين شفتيه ..
إلا أنه عندما تقدم نحوي.. عب نفسا عميقا و ترك دخانها يتسرب إلى أنفي قائلا ..
- لا بأس ..
ثم مد يده إلى وجنتي اليسرى. داعبها بإمعان
- الذنب ليس ذنبك ..
و توقف المصعد في طابق غير الذي نقصد.. فقال معاليه ..
- و الآن اخرجي ..
تأهبت للخروج فامتدت يده اليمنى إلى وركي الأيسر و ربتت عليه بإمعان .
لم أدر كيف وجدتني خارج المصعد.. و لم أكن أعلم هل الواقف أمامي كان سلمان أم شخصا آخر أراه لأول مرة.. كان ذهني فارغا إلا منه..
هو .. يزيد..
ما علينا ..
أتذكرين معاليه و هو يتحدث في التلفزيون متنكرا في زي عاشق للفضيلة ؟ كل ذلك تلاشى في لحظة داخل مصعد في حضرة امرأة مجهولة و رجل خفي.. تصوري أن أنفاسه الحكومية و هي تمتزج

بدخان السيجارة الشقراء وتقتحم أنفي بكل ما في السلطة من سلطة لم تثر في أدنى تقزز..
الحديث عنه كان يثير في غثيانا سهل التحديد. و مواجهته محت كل ذلك.. و أنا أهرع خارج المصعد ساد لدي اعتقاد أني التقيت اليوم بضدي.. و للضد يا عزيزتي فضيلة, فهو يمنحك فرصة اكتشاف زاوية معتمة فيك.
لقد فاجأني من حيث لا أحتسب و مد يده بثقة الدكتاتور في نفسه إلى مؤخرتي..
فهل حقدت عليه ؟ ..
لا.. و ألف لا ..
قال لي يزيد مرة في إحدى جلساتنا القصيرة
- أحيانا يساعدك الخصم أكثر من الصديق..
لعل هذا ما فعله السيد العزيز
أفتح قوسا لأطرح على نفسي سؤالا .. لماذا أقص عليك كل هذا ؟ و يأتيني صوتك من سنوات خلت, لأني أحب الاستماع.. أنت الآن تجالسين امرأة بدون قيود.. تجلس إلى دفتر مذكراتها و تكتب تكتب تكتب .. أنت دفتر مذكراتي ..
عنك أرفض أن أخفي الجحيم الذي يتفاعل داخلي .
اعذريني إن كنت أتأرجح في القص و أرتبك في الإفضاء فقد كنت دائما منتظمة مضبوطة إلا في عواطفي و أحاسيسي.
كم أود أن أعلم هل ما ارتكبه السيد الوزير يثير لديه إحساسا بالذنب.. هل وقع بفعلته تلك صك عقابه, أم أن سلطته تقيه حتى من نفسه ؟.. آه لو أستطيع أن أعرف منه ذلك !
كانت نظرته باردة و عيناه فارغتين من أي تعبير. كان صوته الهامس رتيبا خاليا من الغضب و خاليا من التعاطف و على وجهه ارتسمت ابتسامة رضى لا يخطئها الحس..
أما سلمان ..
هذا الرجل المسالم الذي لا يكره أحدا و لا يكرهه أحد لأن ذكاءه الطفل أعفاه من الدخول في متاهات تثير الحقد منه أو عليه. فقد انطفأت

نظرته.. و كأني به ابتلع غصته. لم يكن يتوقع يوما أنه سيواجه امتحانا كهذا. شعرت به يصب على نفسه حقدا لم يستطع أن يصبه على الرجل الذي زرع في خياشيم زوجته أنفاسه ممزوجة بالمارلبورو. ثم تمادت يمناه لتلمس في استفزاز مقصود شيئا يعتقد أنه ملكه بموجب ورقة وقعها قاض و شاهدا عدل.

لم أسمع منه كلمة.. و لم تعد عيناه تجرؤان على النظر إلي.. لن أقص عليك شيئا مما يدور في البيت فحدس الأنثى فيك كفيل بأن يكشف لك عن المستور

II

الثلاثاء

هل ثمة ألذ من النفوذ ؟ هل هناك شيء أكثر نشوة من أن ترى الآخرين يتلعثمون أمامك .. يرتعشون.. يفقدون توازنهم و ترتبك حبالهم الصوتية ؟؟
هذا ما أعيشه كل يوم و أقل إحساس بفقدانه يثير في رعبا يعادل رعب فقدان الفحولة .. المرأة التي امتدت إليها يدي هذا الصباح أمام يعلها ابتسمت لي.. أن يبتسم لك شخص ليس من طينتك لا يثير فيك أي نشوة.
لعلها ابتسمت خوفا.. و عندما امتدت إليها يدي كأني بأحاسيسها أصيبت بالشلل.
و مع ذلك ..
لم أستطع أن أنام ليلة البارحة. لم أكن منشغلا بشيء محدد.. دون ألم كانت صورة المرأة تعود إلى مخيلتي باسمة.. دون ألم كان ظل رجل يراودني. و يذهب النوم..
و هذا الصباح عندما استيقظت أحسست برغبة جارفة للوقوف أمام المرآة.. تأملتني جيدا حاولت أن أعد شعيرات رأسي السوداء و بالكاد عثرت على ما يوازي أصابع اليد الواحدة.. عيني اليمنى الزجاجية كانت تعكس صورة امرأة المصعد و ظل رجل.. حاولت أن أبتسم فرأيت الفم امتلأ أنيابا..
ما هذا ؟

أنا الذي لا يرعبه أحد أصبحت أرعبُني ..
وجهي الذي لم أغسله بعد آنذاك كان ركاما من المساحيق. كنت كمهرج في سيرك.. مع فرق واضح هو أن المهرج يضحك الناس و أنا أرعب نفسي.
هل كل هذا بسبب امرأة ابتسمت ثم اختفت ابتسامتها ثم غادرت المصعد هي و زوجها وكأنهما ضربا علي أم رأسيهما. خطوت نحو الحمام لعل الماء الدافئ يزيح عني هذا الإحساس الغريب.. تحت الماء كنت أفكر..
لا .. لم أكن أفكر.. كنت أغرق.
كيف أتخلص من هذه اليد التي تعتصرني من الداخل.. أعلم بالتجربة أن أهم مكسب لرجل في ضيق هو التمسك بأعصابه هادئة.. على الأعصاب الهادئة يمكن للمرء أن يعتمد دون خوف.
قلت لأحاول التمسك بأعصابي باردة .. فبدأت زخات الماء الآتية من الرشاش ترشقني كالإبر..
مزيدا من الهدوء أيها الوزير !
و هربت ..
نعم .. هربت من الحمام. هربت من المرآة.. حتىَ العطر الذي كنت أعتقده يضيف إلى جاذبيتي منحني بسخاء رائحة لا تطاق.
كل ذلك بسبب ابتسامة ظهرت ثم اختفت ..
و أنا الذي لا أعرف الوحدة رأيتني أسعى إليها.. أنا الذي يتعب الآخرون من أجل راحتي وجدتني مرهقا أولا.. و أرفض هذا الإرهاق ثانيا..
السلطة ترفض الإرهاق لذلك توفر لرجلها كل وسائل الراحة و الحرية..
الحرية ! لا توفرها لك سوى السلطة.. كلما كنت ذا نفوذ استطعت أن تفعل ما تشاء متى و أينما و أنى تشاء ..
قلت للسائق ..
- اذهب بي إلى أي مكان إلا إلى المكتب
احتار السائق.. فقلت :
-اذهب بي إلى مكان لا أعرفه أنا و تعرفه أنت ..
كبرت حيرته.. لم يجب .. امتطى السيارة ثم وجدها ..

- هل تريد سيدي أن ترى الحي المحمدي معقل الكفاح الذي تتحدث عنه كثيرا في خطبك ؟
قلت له :
- كيف تراني ؟
قال :
- كعادتك يا سيدي. في كامل عافيتك .
- كيف ترى أسناني ؟
- جميلة يا سيدي .. أليست من صنع أمهر أطباء الأسنان في باريس
قلت له :
- إنها أنياب ..
صمت .. قلت :
- أنت لم تجب
رد :
- أنت لم تسألني يا سيدي
- قلت إنها أنياب
- فيها الأنياب يا سيدي
- بل كلها أنياب ..
- كلها أنياب يا سيدي ..
- هذيان.. أليس كذلك ؟ خذني إلى النهر
- لا يوجد نهر في الدار البيضاء
- خذني إلى أي نهر في أي مكان ..
- أم الربيع يا سيدي .. لكنه في آزمور لا في الدار البيضاء ثم إنه شبه جاف ..
- هذيان .. أليس كذلك ؟
و هذيان ما سمعت و السائق ينتظر أن أعطيه أمرا آخر مخالفا. كان الصوت مدويا هادرا. لم يأت من الخارج.. من بين الصلب و الترائب جاء ؟ لست أدري..
- يا فقير النفس !
قال الصوت .. قلت للسائق ..

- أسمعت ؟
قال السائق ..
- لا يا سيدي . لم أسمع شيئا
قلت :
- ألم تسمع هذا المعتوه الذي يقول عني فقير النفس؟ أليس معتوها و ابن معتوه !
رد السائق :
- بلى يا سيدي إنه معتوه و ابن معتوه ..
هذا السائق لم يسمع شيئا. لم يكن يهزأ بي. كان فقط يمارس خوفه المعتاد مني.
ثم أشرت له بالذهاب إلى مكان يعرفه جيدا, شعرت بصعدائه و هو يتنفسها كلمات تخزني كماء هذا الصباح..
من عادة نادل مقصف الفندق/البالاس أن يسارع إلى تغيير غطاء المائدة التي أختارها .. غطاء مائدتي أحمر أولا.. و لا يستعمله غيري ثانيا. و هو من الحرير ثالثا.. ومن عادة النادل أن يذهب بنفسه إلى مكان ما و أن يعد لي هو لا غيره جرعاتي وفق طقوس هو يعرفها و يدعني.. وينصرف.. ينصرف معناه أن يحول دون جلوس أي زبون في المنطقة التي أوجد بها.
فهل سأستريح هذه المرة ؟.
لست ادري لماذا اخترت مقعدا أمام لوحة الجوكندا ظلت تحدق في و ترسم على سحنتها شيئا كالابتسامة. لا ينقصها إلا الظل لتصبح امرأة المصعد..
و مع أني لم أتبين جيدا امرأة المصعد.. إذا صادفتها في أي مكان لن أتعرف عليها. رأيتها نسخة من هذه الابتسامة الغامضة التي تحدث عنها الكثيرون و كثرت التحليلات و التعاليق و ظلت هي ثابتة..
رأيت الظل يخرج من خلف اللوحة و يتقدم نحوي. يقف
يأتيني صوت كالصوت و لكنه ليس صوتا ..
-أعرفتني يا فلان ؟

حاولت أن أتبين ملامحه دون جدوى.. لم أخف لكني أحسست بي أتأبد
لزوجة ما.. أحسست بالدم يتصاعد إلى وجنتي.. سألت بصوت أجش
قلت و لم أسمع صوتي ..
-من أنت ؟ و ماذا تريد ؟
و بصوت كالصوت و لكنه ليس صوتا يرد :
- ألا تعرف من أنا ؟ ما علينا.. اعلم أيها العبد أنك حتى الآن ظللت تفعل ما تشتهي و تدع الآخرين يقولون ما يشتهون.. أنت لست سوى بيدق مغصوب الإرادة.. تحسب نفسك ذئبا و أنت أقل ضعفا من حمل.. إذا كنت قويا فحاول أن تهرب مني.. سأظل أطاردك في غدوك و رواحك.. سأذكرك بأنك غث .. لا.. الغث له قيمة .. أما أنت
صحت .." اذهب إلى حال سبيلك "
لاهثا وقف النادل أمامي.. لم ير أحدا.. و انصرف
أفرغت ما تبقى من الكأس في جوفي. حدقت في الجوكندا فإذا بها هي هي .. لا تتبدل و لا تتغير..
حاولت النهوض فوجدت أمامي سكرتيري الخاص, كأنه خرج من خلف اللوحة .
- عفوا سيدي .. برنامجك حافل هذا اليوم ومجموعة من الأعيان جاءت وفق الميعاد المضروب لها..
و تدخل الصوت الذي هو كالصوت و لكنه ليس صوتا.
- اذهب إلى عملك .. بعد عملك عد إلى المقصف و اشرب إلى أن تفقد وعيك. لعلها الطريقة الوحيدة للإفلات مني.. مع أنك ستجدني نقطة في جدول أعمالك و في آخر نقطة في آخر كاس تذهب بوعيك.. أنا أيها الوزير المحترم عقوبتك التي لم يجرؤ على إنزالها بك قاض.. اذهب وصاحب الأجانب و الغرباء فلا خطر يتهددك منهم..
- كفى !
اندهش السكرتير و أضاف وجلا
-أتريد أن ألغي كل ارتباطاتك ؟
قلت له :
- لم أكن أخاطبك أنت هيا بنا ..

آه لو تكلمت نظرته .!.
فكرت أن أحسن حل هو أن أذهب إلي برنامجي و أن أنفذه فرضا و نوافل حتى أتخلص من هذا الدخيل الذي نجح في ما لم ينجح فيه آخرون ..
قلت للسائق .. انطلق بأقصى ما تملك من سرعة .. لا تقف عند الإشارات الحمراء و لا عند علامات قف..
هل تضحك الظلال ؟
هل تقهقه الأصوات الغائبة ؟
"حذار أيها السيد العبد المطاع المطيع من أن تجلس وحيدا .لأنك شئت أم أبيت ستدعوني إليك.. أنجز عملك بكل ما أوتيت من كفاءة .. ادع إلى اجتماعات لا طائل من ورائها.. ناقش جداول أعمال لا تتجاوز الحبر على الورق.. وقع أوراقا لا تبرح مكتبك . اشتغل . اشتغل. لا تكف عن العمل, لأنك إذا كففت عن العمل, اشتغل دماغك و إذا اشتغل دماغك ستجدني فيه.."
يضحك ..
هل تضحك الظلال ؟
الجوكندا بابتسامتها الشامتة تحدق في.. تتغلغل في عيني الزجاجية.. تتحرك بنفس سرعة السيارة. تخترق الأضواء . تتجاهل علامات المرور.
ثم قال الصوت عندما اقتربت من إدارتي :
"و الآن أيها العبد.. دع جحيمك يختفي داخلك و أعلن على الآخرين أنك تعيش في النعيم.. كررها لمن سيتفاوض معك و كررها لكاميرات الإعلام و كررها لأقلام الصحافة.."
قلت:
- سأدخل الحمام لبعض الوقت.. قل لهم أن يستعدوا للقائي.. ها قد جئت.. ذكرني بموضوع اللقاء آه .. نعم. تذكرت إنهم الأعيان..
و دخلت الحمام.. أمام المرآة أردت أن أرى فرأيت الأنياب. رأيت العين الزجاجية تعكسني. لم أرتعب مني قط مثل هذه اللحظة. ها هي صورتي تخيفني.. و جاء الصوت اللاصوت.. ماذا أفعل حتى لا أسمع ؟! إنه يأتي

من خلف طبلة الأذن.. كالطنين. هل يستطيع أحد أن يصم أذنيه عن طنينهما؟
جحيمك داخلك و أعلن على الملأ أنك تعيش في الجنة..
تركت جحيمي داخلي و ركضت إلى قاعة الاجتماعات أعلن لهم أني أعيش و انهم يعيشون في نعيم ..
قلت لهم:
- ماذا يتمنى المرء في هذه الدنيا أكثر من أن يجد الجميع ينحنون عندما يمر.. ينصتون عندما يقول.. لا يعرف الحواجز و لا الموانع .. مباح له ما لا يباح للغير.. مستحب له ما هو مكروه للغير.. حلال عليه ما هو حرام على الغير.
ماذا يتمنى أكثر ؟"
توقفت عن القول و صفقوا.. لا يملكون إلا أن يصفقوا ..
لم أعد أدري لم دعوتهم ..
صمتت قليلا أبحث في ذهني عن موضوع اللقاء غلفوا لحظة صمتي بتصفيقات إضافية.. ثم تصفيقات إضافية أخرى ..
و قلت لهم انصرفوا و لا تنسوا أنكم الأعلون .. وانصرفوا كلهم.
و بقي صدى الصوت سوطا يلعلع داخلي
فقلت للسائق ..
- خذني إلى الحانة.. أريد أن أغيب عن هذا السوط الصوت

III

عزيزي سلمان ..

قرأت رسالتك. و دعني أقل لك إنها أعطتني الرغبة في القتل.. إلا أن دافيدوف يرى العكس. أتذكر دافيدوف ؟ لا شك أنك تذكره .. لقد جعلك تحب نشيد الإنشاد و هو يلقيه عليك بفرنسية لا لكنة فيها.. و كنت تقول له : هذا دليل على أن الكتاب المقدس أرحب منا صدرا ..

ما علينا ..

دافيدوف قال إن معالي الوزير لم يخرج من ذاته بعد ثم ضحك و قال كيف تتصور وزيرا سجين ذاته, يخرج شاهرا على الناس قراراته و سلطته ثم ضحك أكثر و قال إنه لن يستطيع أن يفعل أكثر من أن يمد يده إلى مؤخرة .. ثم صمت.. و قال لي .. قل لسلمان إن أيادي تمتد برضى و مباركة معاليه إلى حرمه و لا يجرؤ أن يكبت ابتسامته.. إياك يا سلمان أن تشك في ذلك..

لكني أعرفك جيدا. ستقول إن ذاك شانه. يكفي أن يحترم شعورك أنت و ليفعل به الآخرون ما يشاءون ..

و أنا أعرفك جيدا و أتصور حالك وعيناك تهربان من عيني زوجتك.. أقدر عذابك و أنت توليها ظهرك.. أتصور وزن الصمت و هو يرين عليكما و أتصور هروبها إلى لوحاتها حتى لا تحرجك. جرحك يا صديقي عميق.

و معاليه أمي, لأنه لا يعرف أن إهانة رجل هي أقبح من كبته هو.. لا يعرف أنه أفقدك الإيمان بمحيطك و بالهواء الذي تتنفسه..
أتدري ماذا قال دافيدوف ؟
قال قل لسلمان فكر جيدا ثم قرر ثم التزم بما قررت حتى النهاية. قل لسلمان أن يتوقف عن الشكوى. فالشكوى لغير الله مذلة.. قل له أن يحدد ما يريد فعله و أن يتحمل مسؤولية قراراته.. قل له حاول أن تقرأ ما يدور في خلد زوجتك التي لا يبدو عليها ارتباك.. و لا تبدي غضبا و لا تقززا منك.. لأنها تدرك الجحيم الذي حشرتك فيه يد الوزير.
قل له إنك مظلوم لأنك ابن الشعب, واحد من الغوغاء كما يقولون أو من الأكباش كما جاء على لسان بعضهم.
و عليك أن تخوض معركتك بنفسك..
ثم قال .. لا لم يقل شيئا. صمت. ابتسم بمرارة. ورأيت دمعة تطل من عينه اليسرى.
و تألمت لك ..
تألمت لحيرتك و حزنك. أعلم أن الإنسان يستطيع أن يتخلص من حزنه إذا فضفض و أفرغ ما في قلبه. و أعرف أن حزنك يتوالد.. ينمو بمجرد ما تراها.. و أفهم رغبتك في القتل. فقد اعتراني نفس الشعور بمجرد قراءة رسالتك.
أحيانا أتحمس لفكرتك في تقصي أخبار معاليه في ركضك خلفه كصياد وراء فريسة.. ثم أفقد حماسي عندما يروج في ذهني أن الصياد قد يصبح الفريسة..
هل تستطيع يا عزيزي مواجهة وزير ؟
طبعا لا ..
و لكنك تستطيع أن تبحث بكل إصرارك الهادف عن برودة أعصابك.. تستطيع أن تستعيد هدوءك و إذا نجحت في ذلك فأنت حتما تستطيع أن تفكر. لأنك الآن لا تفكر..
أفهم إحساسك بالوحدة و كأن العالم انفض من حولك و تركك تواجه شخصا لا يشعر حتى بمجرد وجودك. أفهم رغبتك الجديدة في الدخول إلى حلبة صراع أنت تعي تماما أن القوى فيه غير متكافئة.

حتى رائحة الدخان الذي نفثه في أنفها تخنقك وترفض أن ترحل عنك..
أنت تتألم, و ترفض أن تتألم.. و لأنك ترفض أن تتألم يصبح الألم ألمين,
لذلك لا تستطيع أن تفكر..
أريد أن أسدي لك نصيحة تخرجك من شرنقة الهم التي تحكم الطوق
حولك, فأجدني أدخل الشرنقة معك.
غريب هذا العالم ..
كيف يقبل أن يضم أناسا لكي يعيشوا, لا يجدون بدا من حرمان الآخرين
من العيش..
صاحبك فقير النفس.. فهل تريد أن تكون أفقر منه نفسا ؟
هو محتاج لأن يجرب نفوذه كل يوم, يريد أن يراجع مدى قوته.. و ذلك
دليل على ضعفه الفسيح.
أقول هذا يا عزيزي و أجهل كيف أنتشلك من الألم.. لقد كنت بليغا عندما
قلت إنك أصبحت الألم مكسوا لحما.
أحيانا أجدني أميل إلى دعوتك إلى التوقف عن التفكير في رد الفعل..
فأنت لا تستطيع أن تثبت شيئا.. و لا تستطيع أن تفعل شيئا..
و أحيانا أجدني أرفض أن تستسلم لهذه الصدفة المدمرة. في داخلك
صاعقة. أعرف أن ليلك أصبح غير الليل.. أعرف أن السماء فوقك غير
السماء فوقنا.. أعرف يا صديقي أن المدينة لم تعد هي المدينة و أن
أرصفتها فقدت نكهتها القديمة.. أعرف أن زوجتك لم تعد زوجتك التي
عشقت وعاشرت حتى يوم المصعد.
أعرف أنك تبحث عن مرفأ .. عن سماء غير السماء و عن هواء آخر.
أعرف أن حظك العاثر رمى بك أمام ديك خصي من تلك الفصيلة التي
تنفش ريشها في المهرجانات الجوفاء..
أعرف أنك تبحث عن كرامتك. عن شخصيتك التي افتقدتها أمام هذا
القناع. و أعرف أيضا أن ليلك لا يمكن أن يكون أبديا. أعرف أن حبل
الطغيان قصير..
فإياك أن تتخاذل.. إياك أن تنحني.. أعط لكرامتك كل لحظات حياتك..
اقرأ كثيرا. إياك أن تضحك بمرارة اليائس. اقرأ و سترى. اقرأ حياة
غاندي مثلا.. و اقرأ عن أولئك الذين يعرفون كيف يرفضون الرضوخ و

سترى كيف سيبزغ الفجر من بين الكلمات.. اقرأ حياة الزهاد و المساكين و المتصوفة.. و سترى المرفأ.. سترى الحب..
ثم اعلم أن الله لن يجمع عليك الحشف و سوء الكيل. لا أستطيع أن أقول أكثر..
مع محبتي..

IV

أسعى إلى الحرية و أجدني عبدا لعاداتي.. تناول قهوة الظهيرة مثلا في نفس المكان.. اللقاء بخديجة في نفس الوقت بنفس المكان..

و خديجة عندما تقبل نحوي تختزل العالم و الناس و الماضي و الحاضر.. أشعر بنشوة هي غير نشوة العاشق.. أعشق اللحظة و المكان ..

خديجة. لا أراها بل أشعر بها.. لا تقول و أسمعها. كم جلسنا صامتين في حديث شائق.. إنها نفحة من شيء ما..

قال لي مرة صديق قديم.. لست أدري لماذا.. إن للمرأة بعلا. لم أرد عليه. فدخل في حديث طويل عريض يحلل نفسيتي. ثم سألني عن رأيي في تحليله.. أجبت أنه لم يفهم شيئا..

و ضحكت .. ضحكت على هذا الماركسي العاشق للكتاب المقدس و الذي لا يتوقف عن ترديد نشيد الإنشاد.. أنا ضحكت.. و هو قال بأني أرفض أن أعترف..

لم يفهم كنه علاقتي بخديجة. و كل من يرانا يذهب به تفكيره إلى المتعارف عليه. لا أحد يفهم أنها لا تأخذ مني شيئا و أني لا آخذ منها شيئا و أن ما نتقاسمه هو اللحظة بقولها و صمتها..

لذلك لم أدخل قط في مناقشة هذه العلاقة معه

خديجة حكت لي باقتضاب شديد ما جرى لها مع الوزير.. هل هي التي قالت, أم أنا الذي قلت ساعتها. لست أذكر.. إنما ما تردد كان.

- لقد آذى نفسه الرجل
ثم جاء الحديث عن سلمان.. لعلها هي التي قالت
- .. سلمان الآن جريح و ثمة خطورته.. إن اليد التي امتدت إلى كانت سوطا نزل عليه و مزق عضلاته و كشف عن اللحم ..
و لعلني كررت ..
- لقد آذى الرجل نفسه ..
خديجة لا تعلم أنها من طينة مختلفة. قالت إنها لحظة امتداد اليد إليها دخلت في فراغ مطلق. و لم تفهم. قالت إنها لا تحقد على الرجل و لم تفهم..
لم تفهم كما لا تدرك النحلة أنها تنتج العسل. ثم قالت في آخر حديثها ..
- لعل ما حدث هذا الصباح سيكون منعطفا في حياة معاليه..
و لو كان معنا دافيدوف لقال عن الرجل وحشا. ذلك أنه كان دائما يردد أن الرجل وحش. و الوحش يرى الأشياء العادية بعين مختلفة.. و هو يكره الناس الهادئين الذين لا يرتعبون من ذكر اسمه ولا يرتعشون لحضوره.. إن أقسى لعنة توجهها له هو أن تتمسك بهدوئك أمام طغيانه.
فهل هذا صحيح ؟
هناك شيء في داخلي يقول لي إن الرجل دخل مرحلة معاناة ليس مصدرها الحكم أو الزعامة أو المال ..
قلت سأزوره و أبتسم له و أطلب له الهداية. ثم عدلت عن فكرتي.. و لكن شيئا في داخلي يقول إنه سيراني دون أن يراني و سيسمعني دون أن يسمعني و سيود لو أنه استطاع أن يسلط علي زبانيته..
إلا أن ..
قالت خديجة ..
- لم تقل لي شيئا يا يزيد.. و مع ذلك أنا مقتنعة تماما بما قلت ..
و أدركت أنها أدركت ..
هذا ما يشدني إلى خديجة.. لو حكيت لدافيدوف مثلا حكايتي معها لكان عصيا عليه أن يصدق.. لم تلتق عيني قط بعينيها .. لا أستطيع أن أصف ملامحها..
لا أستطيع أن أحدد قامتها و لا أن أذكر عن أنوثتها شيئا..

إني أحس بوجودها أمامي. بحديثها إلي.. أشعر بخطواتها الآتية نحوي.. أحس بنبض قلبها.. عصي على الإدراك ما أقول.. و لذلك فلن أقوله لغير مذكراتي ..

أدركت أيضا أنها أدركت عندما قالت .. أو لعلي أنا الذي قلت إن الوقوف ضد شخص من فصيلة الوزير أمر عسير على أمثالنا فهل نستطيع أن نتحكم عن بعد في قوته و نوجهها إلى حيث نريد.

ثم سمعت صوتا يقول ..

"سيرى العالم مختلفا.. سيدخل في عملية تطهير أشد إحراقا من النار .. و قد يذهب به الأمر إلى انتظار الموت كمن ينتظر لحظة فرح .."

و صمتنا ..

كان المقهى يضج بالحضور و كنا وحيدين.. كان صوت الآلة و هي تسحق حبوب القهوة يقتحم الآذان و حولنا كان سكون يلغي صوت الآلة والطلبات و النادل ..

صمتنا ..

و كأننا قلنا الكثير ..

و شعرت بوقفة خديجة. أحسست بخطواتها تبتعد..

ذهبت ..

بدا لي أنها خرجت من المقهى بدماغ رجل أعمال و عضلات ملاكم و هدوء حكيم.. لعلها هي التي قررت أن تدع معالي الوزير يهدر طاقاته إلى أن يقر بهزيمته و لعلي أنا الذي فكرت أننا جبل و أن الرجل بجبروته لا يملك فأسا ..

و فجأة أحسست بالتعب ..

و عدت إلى بيتي و قررت أن أرتاح ..

و ارتحت ..

إنه ذاك النوع من التعب الذي يأتي بعد جهد جهيد

توقفت عن التفكير.

غفوت ..

و رأيت في ما يراه النائم ..

الفم.. رأيته يتصبب عرقا, رأيت له قوة قاتلة و هيجانا مدمرا لكنه لا يعرف أين يوجه قوته و هيجانه..
رأيت الرجل يحدق في أنيابه في المرآة .. ثم رأيته و الحضور يحدقون فيه داخل قاعة فسيحة يستمعون إلى ما يقول و يتساءلون لم يقول ذلك.. و هل من أجل حديث كهذا ندعى إلى اجتماع. رأيتهم يصفقون على مضض..
ثم رأيته يدخل حانة الفندق و يغرق نفسه في محاولة للنسيان..
و عندما فتحت عيني رأيته.. لست أدري أين كنت و لا أين كان و لا أين كنا و لكني رأيته ينظر في الفراغ و كأنه يحدث شبحا.. يتهدد.. يتوعد.. يتنهد.. يمسك رأسه بكلتا يديه و يصرخ ..
ثم رأيت وزيرا يصرخ
و رأيته يكرر صراخه ثم ..
رأيته يندس في فراش و ينام. لا أستطيع أن أحدد معالم المكان .. و لا أستطيع أن أقول كيف حضر الفراش.. و لا من أين ..
لا أستطيع أن أقول أين كنت أنا الذي أراه ..
لا ملامح للفضاء
و مع ذلك كنت يقظاً . لم أكن أحلم.

V

تـضطجع. تـشاهد الأخبـار. غيـر بعيـد. زوجهـا يـشاهد الأخبـار بدوره. ثم تراه و دون أن تدرك تجد نفسها تلتفت.. يراه و دون أن يـدرك يجد نفسه يلتفت..

إليه تلتفت.

إليها يلتفت.

تصطدم النظرة بالنظرة و يخرس اللسان.. يخرس اللـسان و يبـدو حـديث تحس به . يحس به.

لعلها تقول له.. ها هو أ رأيته ؟ ماذا فعلت يـا رجلـي و حـامي كبريـائي.. لعلها تقول له.. انس هذا الموضـوع فـالعين لا تعلـو عـن الحـاجب.. لعلهـا تقول له أين فحولتك ؟ إنـها تذهب هباء تنثره يد معاليه .. لعلها تقوله له .. لعله يقول لها لم تلتفتين إلي.. ماذا تريدين منـي أن أفعل ؟ ألم تكونـي أنـت البادئة ؟ ألم تبتسمي له و كأنك توجهين دعوة إلى دخانه ليقتحم خياشيمك .. و إلى يده لتجرؤ و تمتد إليك أمامي ؟

لعلها تقول له لو كنت أنا الرجل لطرقت كل الأبـواب لفضحه ..

لعله يقول لهـا .. مـاذا سأقول للأبـواب أيتها الغبيـة ؟ يا عـالم هذا الرجل ربت على مؤخرة زوجتي؟ أيعقل هذا ..

لعلها تقول له .. ستجد طريقة تعيد بها شرفك المهـدور. ابحث. ابحـث يـا بعلي العزيز.

يوجه إليها خطابا.. تصوروا خطاب الوزير.. في اعتقادكم ماذا سيقول
وزير في التلفزيون غدا أنه سعيد بالإنجازات التي تحققت في مغربنا
وطننا روحنا فداه .و أن ما أنجزه هذا البلد في خمس و عشرين سنة
يتجاوز ما أنجز في قرون.. و هو سعيد لأن البلد بلد حرية و احترام
لحقوقك أيها الإنسان ..
و تحس بشيء كالطعنة .. تكتم صرخة.. يحس بطعنة و يكتم صرخة.
ترغب في إطفاء التلفزيون .. يرغب في إطفائه. لا تجرؤ. لا يجرؤ.
تنحشر داخل الأريكة. ينحشر بدوره داخل الأريكة و تمعن التلفزة في
إظهار الوزير. تتفنن الكاميرا في أخذ لقطات له من اللقطة الأمريكية
إلى اللقطة القريبة إلى اللقطة القريبة جدا إلى اللقطة العامة إلى
المتوسطة إلى الأمريكية فيصرخ سلمان ..
كفى !
تلتفت إليه و تهمس ..
كم أنت تتعذب! ..
و تعتدل في جلستها. تنهض. تتقدم نحو الشاشة. تضغط على الزر..
يتنفس الصعداء و يهمس :
- شكرا
ينتصب الرجل.. يشعر بوطأة النوم فينساق لها و في لحظة يتناهى إليها
شخيره.. تنظر إليه طويلا و تنسحب إلى غرفة النوم.. تحشر نفسها
تحت الغطاء . فهل ستنام ؟
و هل نام هو ؟ أم أن التعب يفعل فعلته.. يعبث بالرجل. و عندما يتناهى
إلى سمعه رنين جرس المنبه. يفتح عينيه أكثر تعبا
عليه أن ينهض.. أن يحشر نفسه تحت الرشاش. أن يقف أمام المرآة.. أن
يسوي ربطة العنق. أن يخرج من البيت. أن يصل إلى عمله في الميعاد.
ويصل إلى مقر عمله قبل الميعاد..
لا تزال المكاتب فارغة و الأجهزة صامتة. هدوء المكان أحيانا يرعبه.
زميل جاء قبله يتأمل الصفحة الأولى من جريدة باللغة الفرنسية. كل من
في المؤسسة لا يقرأ غير جرائد الفرنسية. يقترب من زميله و يلقي عليه

صاحبه ببتلع الربع الايمن منها.. يعلوه ارتباك.. حركه لسانه تتوقف و كأنها أمام ضوء أحمر .
لم يلاحظ الزميل شيئا. مشغول بالصورة بدوره..دون أن يرفع بصره عنها يقول :
- كم أود لو كنت رجل تازة لأرسم علامة بمنجل على ردفه الأيمن حتى يعلم أننا لسنا دمى في هذه المنطقة من المعمور..
لهذه الجملة قدرة الفعل.. كأن يدا امتدت إلى العبء الجاثم على كتفيه و أزاحته ..
يبتسم لصاحبه ..
يضيف الزميل
- ألست متفقا معي ؟
يرد
- بلى ..
يتابع الزميل :
- التفكير في رسم بصمة على جسد هذا الرجل
أصبح إحدى هواياتي.. تصور أني أجمع عنه ما أستطيع التوصل إليه من معلومات. و من السهل اقتناصه في مكان ما لأنه يعتقد أنه في مأمن من أي خطر..
- لكنه ليس في مأمن من نفسه
- صحيح ..
يرد الزميل ..
-و لو وجدت من يساعدني لقلت له كلمتين ولداعبت مؤخرته بمنجل و لتأت الموت إذا شاءت.
لعل لهذا الرجل حكاية مع معاليه. لعله أوقع به إهانة غيرت إيقاع حياته و جعلته يكون ملفا عنه ويسعى إلى الإيقاع به ..
ترى ما هي حكاية هذا الزميل ؟
يحاول أن يطرح السؤال فيفضل الصمت.. عندما يأتي أوان الفرح ستطل الحقيقة من تلقاء ذاتها .

لا يدري كيف وجد نفسه يقول :
-أنا معك .. و إذا شئت ساعدتك ..
هذه المرة يرفع الزميل بصره.. يقرأ في نظرة زميله شيئا يفوق الرغبة..
و يرد :
-و إذا عزمت فتوكل ..
- هل أعتبر هذا عهدا بيننا ؟
يمد الزميل لزميله يده. يشد عليها بحرارة قبل أن يضيف..
-شريطة أن لا تسألني عن سبب هذا الحقد الخصب
يتابع الآخر
-و شريطة ألا تسألني بدورك
يومئان معا .. يطمئنان معا.. يقولان معا
- هو عهد بيننا .. فلنقرأ الفاتحة
يقرءان معا الفاتحة بصمت ..
"و لا الضالين آمين .."
أنا و أنت نرفض اللماذا.. كالوردة تزهر دون لماذا .. فقط تزهر لأنها تزهر ..
- سنذهب لنشتري المنجل. إذا سمحت سأحتفظ به في بيتي. و في اليوم الموعود سنذهب معا.. أنصت
ينصت سلمان .. يتابع زميله ..
- تعود الرجل أن يشرب نخب دونكيخوتياته في أحد الفنادق الكبرى. بين الفينة و الأخرى يذهب إلى المرحاض. لعله مصاب بداء السكري ..
يقاطع سلمان زميله
- إنه مرضهم جميعا
يتابع الرجل
- هذا المرض عميلنا في هذه العملية.. يكفي أن تتأكد من خلو المرحاض من غير معاليه. أن تقتحم عليه خلوته بنفسه, و أن ترسم العلامة على مؤخرته..
- هذا يتطلب محترفين.. السرعة الفائقة في الإنجاز

- ما يهم هو خلو المكان .. البقية سهلة.. فمعاليه لا يستطيع ان يقول للعالم أننا تركنا على مؤخرته عاقبة سلوكه تجاه من يسميهم بالغوغاء..
- هذه هي الخطة في شكلها الأول .. و لا تزال تحتاج إلى مزيد من التفكير. إلى مزيد من التمحيص.. و منا إلى تدريب, لا يمكن أن نقوم بذلك بنجاح منذ الوهلة الأولى.
نظر إليه الصديق طويلا دون أن يحرك ساكنا

VI

خديجة تعرج كعادتها على المقهى. هناك يزيد ينهض و هي تقبل نحوه. تمد يدها إليه. يمد يده يمسك اليد برقة و يحملها إلى شفتيه.. تبتسم..

- الناس يرون ..

يجلس يزيد ..

- أنا لا أرى أحدا ..

حدثيني يا خديجة. لا. بل دعيني أحدثك أنا. أنا أقرأ في عينيك شيئا كالبياض.. أقرأ في قلبك صفاء.. لقد نسيت اليد الذي امتدت إليك. و نسيت صاحب اليد.. فقط يؤرقك سلمان. كلميه يا خديجة .. دعيه يتكلم. صمته عدوه الأول. حرضيه على أن يفتح لك قلبه على مصراعيه.. قد يكون الآن يفكر في القتل و يمكن له أن يتخلص من هذه الفكرة بمجرد ما تخرج من عقالها و يتحرر من وطأتها..

أعيدي إليه هدوءه و برودة أعصابه. إن برودة الأعصاب مكسب. رأسمال يمكن الاعتماد عليه في الشدائد.

تطلب خديجة قهوة .. تقول

- إنه لا يتكلم كثيرا.. كأنه تلقى ضربة على رأسه. يذهب و يجيء أمامي نصف نائم..

يزم يزيد شفتيه

- أخشى أن يسعى إلى السقوط.. لأن السقوط أسهل من الوقوف على قدمين ترتعشان من الغيظ أو من الخوف..

يرتشف من قهوته.. و يدخل في شبه غيبوبة يقظى
- اذهبي الآن يا خديجة .. إني أشعر بالتعب.
و يتابع بصوت غائب
- متعب يا خديجة و كأن ما قلته لك كلفني جهدا لا يطاق.. لربما جاء نتيجة تفكير .. لست أدري. لا أذكر أني فكرت في ما وقع لك .. ما أذكره هو أن ما عشته كان أعمق من التفكير.
و الآن اذهبي ..
لم ينهض هذه المرة. لم يأخذ يدها بين يديه و لم يطبع عليها قبلته الهادئة.
تخرج فارغة من الداخل.. تشعر و كأنها دخلت في مرحلة تأمل طويلة المدى.. شيء في داخلها يقول لها ابحثي عن نبع و اشربي حتى الارتواء .. تتابع طريقها دون أن تعلم أنها تقف أمام المصعد.. تنتظر دورها. تدخل المصعد و تدعه يصعد. تدعه ينزل.. تدعه يصعد.. تدعه ينزل.. و دون أن تعي تجد نفسها في البيت تفتح الثلاجة و تغرق معدتها في زجاجة ماء معدني..
يا إلهي ! ارحمني من هذا الخواء.. ألهمني أي شيء أعيد به بيتي إلى سالف عهده.. و تذكرت قناعتها بأن لا شيء يعود إلى سالف عهده و إلا ما معنى الزمن ؟ يا إلهي ! ما لي أشعر أن حالة الحزن هي القاعدة و أن المرح هو الاستثناء .. ما لي أشعر أني سأؤدي ثمن كل ابتسامة صدرت مني؟ !
و هذا اليزيد الذي أنشد إليه دون أن أدرك لماذا.. لماذا لا أحتاج إلى الكلام في حضرته لأشعر بأني لست وحيدة..
و هذا الرجل القوي الذي ولد هكذا بميل فاحش إلى كل ما هو قذر..
و أنا .. التي لم أعد أفهمني .. أعيد النظر في نفسي كل يوم و أركض كل يوم خلف قدري المجهول لأدرك في نهاية المطاف أني خلف سراب أركض
أريد أن أخرج من هذه الشرنقة. أريد أن تكون لعلامتي علامة و أن يكون لمكاني مكان. هناك شيء يقودني إلى أن لا أحزن على مفقود..

على ما عمل. قد يعزم على عدم العوده إلى ما يقترفه الآن. و قد ينسى ذلك بعد فوات الأوان.. و هذا ما أخشاه .. إني أرى اليد الذي امتدت إليك عضوا زائدا عاجزا عن رفع اللقمة إلي الفم.. إني أرى الفم الذي نفث دخان السيجارة في أنفك قد شل نصفه الأيسر واللسان الذي نطق و قال ما قال يومذاك عاجزا عن التعبير عن ندمه.. و أرى في العين نظرة حيوان جريح..

و قال لي ..

-هذا الرجل لا يعلم أنه وقع بفعلته تلك صك عقابه و سترين..

ثم صمت قليلا و نظر إلي مبتسما و سأل :

- هل كنت أقول شيئا ؟

لم أفهم. حكيت له ما قال.. فهمهم كلاما لم أفهم منه شيئا و نهض من مكانه و انصرف دون أن يودعني..

سألته في اللقاء الموالي عن ما صدر منه يومذاك فرد أنه لا يذكر شيئا ..

بهذا الغموض يفتنني الرجل ..

VII

مقهى السقيفة

رصيف. و شمس. و قهوة سوداء. و دافيدوف و حليم.. حليم أتذكرونه ؟ إنه الصديق الذي رد على رسالة سالم في الفصل الثالث من هذه الرواية.. صحيح أن اسمه لم يرد آنذاك.. و هنا استدراك ..

حليم يفكر. دافيدوف إلى جانبه يفكر.. حليم يكسر الصمت ..

- يجب أن يعلم هؤلاء أن في هذا البلد من يرفض طاووسيتهم

دافيدوف يرد ..

- لقد قلنا ذلك مرارا.. أعطنا أيها الحليم حلا عمليا.. و أنا معك.. هناك شاعر عربي قديم تحدث عن الحياة الكريمة و عن الموت الكريم .. و هناك زعيم من هذا الزمان قال مرة إن من يعجز عن اكتشاف شيء يموت من أجله الإنسان لا حق له في الحياة.. ستقول لي إنه رأى متطرف.. ثم إن رجلنا يثق في نفسه أكثر من اللازم, و يذهب به ذلك إلى عدم اعتبار الآخر.. فهو يجوب المدينة دون حراس. أحيانا يكون معه حارسان اثنان فقط..

و أنا دافيدوف رجل نشيد الإنشاد ألمس في نفسي القدرة على أن أعثر على سلاح و أن أذهب إلى الدار البيضاء .. يبتسم حليم ..

- ابتسم .. لكن اعلم أني أستطيع الحصول على مسدس أوتوماتيكي من نوع سيغ ساور بيه 230, أستطيع أن أفرغ في صدر معاليه 20 رصاصة. , أستطيع الحصول على مسدس ماغنوم 44 بعدسة التسديد..

إنه مسدس يمكن إخفاؤه في ماسورة الماء بمرحاض الفندق الذي يشرب فيه معاليه كأسه اليومية..

أتذكر شريط "العراب" لفرانسيس فورد كوبولا ؟ أتذكر المشهد الذي قام فيه آل باتشينو بأول عملية اغتيال ؟. ليكن الأمر كذلك مع اختلاف جوهري. تدخل الفندق و لا أحد سيفتشك.. تنتظر معاليه في المرحاض و عندما يتفضل و ينعم عليك بإطلالة تزرع فيه رصاصاتك العشرين.. و قبل أن ينتبه إليك أحد تتسلل من نافذة تطل على الخارج..

يبتسم حليم مرة ثانية ..

- فكرتك جميلة.. لكن هل تضمن فراغ مرحاض مقصف الفندق من غير معاليه.. هل تعرف أن عملية كهذه تتطلب قاتلا محترفا يعرف كيف يدبر أموره.. المحترف ناجع. حسن الأداء. دقيق التسديد.. أما أنت يا عزيزي فطلقاتك حتما ستكون عشوائية و ستخطئ الهدف من أول طلقة و إذا أخطأت الهدف من أول طلقة لن تكون لديك الفرصة لإطلاق رصاصة ثانية.

دعني أقل لك إني بدوري فكرت في القتل.. لكن ببندقية دقيقة التسديد من غرفة بالعمارة المقابلة للعمارة التي يحتكر معاليه مصعدها.. عدسة مقربة و رام مدرب تدريبا جيدا.. و على بعد ألف متر حتى, تستطيع رصاصة واحدة أن تفجر دماغ معاليه و نطوي الصفحة إلى الأبد..

يبتسم دافيدوف هذه المرة ..

- لا أنت رام و لا أنا رام.. فأين نجد الرامي ؟ ..

- أنا آتيك بالبندقية. آتني أنت بالساعد .

يطلق دافيدوف ضحكة عالية..

- ها قد أصبحنا إرهابيين..

- آه لو كنت أستطيع الحصول على غاز السارين لاقتحمت مصعده بنفسي و زرعته في أنفه

- من الآن أنت حليم آساهارا ..

- آساهارا قتل الأبرياء في مترو طوكيو أما أنا فسأريح البسطاء من استهتار طاغية بمشاعرهم ..

- كفى ثرثرة الآن .. ماذا تنوي أن تفعل ؟
- سأبحث عن السلاح و الخبير .. و سأطلعك على الخطوة التالية. و طبعا لن يعلم سلمان و لا زوجته شيئا عن هذا الأمر.. ما رأيك ؟
- اتفقنا ..

يتفقان .. تأتي لحظة صمت .. كأن الحديث جرف إليهما سعادة من النوع الذي يمارس دون قيود.. يشعران أن علاقتهما بسلمان قوية كالحب العنيف الذي كثيرا ما يبدأ بالاستفزاز ..

هكذا بدأت صداقتهما ذات يوم . لا داعي لسرد حكاية هذه الصداقة كثيرا ما يرددان أنهما فهما معنى الصداقة يوم فهما سلمان..

كثيرا ما حلما و حلم معها بهدوء بأن يتوصلا يوما إلى إقامة الحد على الأيدي القذرة و قطعها أمام الملأ و هم الآن يكرا ن ...

نكره !يقول دافيدوف ..

أبدا .. يقول حليم ..

نحن نزدري .

هو أصغر من أن نكرهه ..

يفترق الصديقان دون أن يفترقا.. لعل كلا منهما يتذكر أنه كد و تعب و اشتغل و لم ينل سوى الكدر. لم يشتريا من أجرتهما التي لم تستطع قط أن تساير إيقاع الشهر سوى علبة من حقد.. يقول أحدهما للآخر.. إن هذا الوجع الذي نعيشه هو نحن. وحدتنا هي نحن.. هي التي شيدت جدارا بيننا و بين أهوائنا..

يفترقان دون أن يفترقا.. يزحف حليم يسارا نحو شقته. و يزحف دافيدوف بدوره يسارا نحو بيته العتيق الذي ورثه عن والده..

كل منهما يفكر في قضية سلمان. و كل منهما يعتبرها قضيته..

كل منهما أكثر من الطبيعة التي شكلته.. أكثر من الصيغ الكيميائية التي تراكمت لتجعل منه شخصا من لحم و دم.. كل منهما يعلم جيدا و يعي كيمياء المرأة التي لم ترتكب ذنبا غير أنها ولدت في هذا البلد ثم ارتكبت ذنبا آخر هو أنها ولدت أنثى و ذنبا أعظم هو أنها انساقت للصدفة و وجدت نفسها داخل مصعد جحيم دانتي أرحم منه..

كل منهما الآن يفكر بجد في الموضوع.. لأن كلا منهما تلقى الضربات منذ الأزل.. جيناته الأولى عانت و عانت التي بعدها و التي بعدها حتى أصبح يشعر برغبة تعز على المقاومة في الدخول إلى الحلبة..
لعل ما يدور في خلد كل منهما الآن يكفي لرسم معالم جديدة لحياتهما

VIII

- هل تستطيع أن تعيش و تدع الآخرين يعيشون ؟
يصفق معالي الوزير لطارح السؤال قبل أن يرفع الكأس إلى شفتيه و يقول :
- برافو يا رجل.. هذا سؤال عبقري.. سأرد. أنا لا أدع الآخرين يعيشون و حسب. أنا مصدر عيش الآخرين.
و يشير إلى حارسه الشخصي و يضيف ..
- انظر إليه .. عضلاته المفتولة لا قيمة لها في غيابي .. أحسن ما يستطيع أن يفعل بها هو حمل البضائع في الميناء من سفينة إلى شاحنة و من شاحنة إلى سفينة.. معي أنا يرتدي الكريستيان ديور .. و يقف .. يسير جنبي .. أو خلفي.. هذا كل ما يفعله مقابل أجرة تسيل لعاب الكثيرين. إضافة إلى كوني في غير حاجة إليه.. نحن نعيش في بلد آمن.. نعيش فيه آمنين محلقين رؤوسنا.. إضافة كذلك إلى أنه يرافقني قليلا.. لا عندما أشعر بالخطر.. إذ لم أشعر بالخطر مطلقا و لكن عندما تقتضي الإيتيكيت حضوره معي.. إذ لا يعقل أن أذهب إلى مكان كل نظرائي فيه مصحوبون بحراس شخصيين و أنا لا ..
يرفع الكأس مرة ثانية إلى شفتيه.. و يجول ببصره في قاعة مقصف الفندق الفسيحة.. تتوقف نظرته دون أن تتوقف على شخصين ينظران جهته ..

شيء في داخله يرتجف قليلا.. يتجرع الكأس إلى آخرها .. يقول في نفسه ..
- أنا شخصية عامة و طبيعي أن ينظر إلي الناس بإلحاح ..
ينتبه صديقه لشروده ..
- أين غبت يا معالي الوزير ؟
يطلق ضحكة عالية.. و يشير للنادل أن يأتي له بكأس أخرى ..
و يتحدث هو. و يتحدث الآخر. و يضحك هو ويضحك الآخر.. و يقف الحارس الشخصي في الكونتوار .. أمامه كاس من ماء معدني .. إذ لا يعقل أن يشرب في أوقات العمل .. و يحدق فيه الشخصان. و يتحدثان فيما بينهما . و يضحكان ويشربان بدورهما.. و ينظران إلى رواد المقصف. و يعبر بصرهما الحارس الشخصي لمعالي الوزير دون أن يثير انتباههما و دون أن يعلما أن الوزير يصحب معه حمايته.. و يتحدثان. و ينظران إلى معالي الوزير و هو يشرب يقول يضحك يشير للنادل. ينظران إليه و هو ينهض.. و هو يزحف نحو مراحيض المقصف.. ويريان الحارس الشخصي بدوره يتجه نحو مراحيض المقصف.. ولا ينتبهان إليه.. و يتكلمان.. ينهض أحدهما يتوجه إلى مراحيض المقصف..

عند مدخلها يكاد يصطدم بمعاليه خارجا.. لا ينتبه إليه الوزير.. يدخل .. ثم يخرج.. يتوجه نحو صديقه ويتحدثان طويلا.. لا يستطيعان منع نظراتهما من التسلل نحو السيد الوزير..
- نظرة السيد الوزير تصطدم بالنظرتين.. فيرتجف هذه المرة وجلا .
نظرة السيد الوزير هذه المرة تتوقف بدورها عليهما.. تتفحصهما من بعيد .. تتقلص عضلات وجه الرجل..
- غريب أمرهما .. كأني موضوع حديثهما.. أوف! هذا طبيعي .. فأنا شخصية عامة..
و مع ذلك يشير للنادل الذي يأتيه ركضا .. ينحني النادل .. يتكلم الوزير .. يرد النادل ..
- لا يا سيدي .. لم يسبق لي أن رايتهما هنا من قبل.

يشير إليه بالانصراف .. و يلاحظ الرجلان أنهما كانا موضوع حديث الوزير و النادل..
يقول سلمان لنفسه
- لعله تذكرني ..
يضحك صاحبه ..
- لا تخش شيئا .ما يثيره هو تحديقنا فيه لا أكثر
يندهش سلمان و يسأل صاحبه
- لم قلت ذلك ؟
يرد صاحبه ..
- ألم تقل إنه تذكرك ..
و يطلق ضحكة عالية ..
- كنت تعتقد أنك تكلم نفسك .. أفق يا صديقي فلسانك خانك ..

ثم يريان هذه المرة رجلا مفتول العضلات يقترب من السيد الوزير و ينحني و يسمع و يحرك رأسه إيجابا ولم ينتبها إلى كونهما موضوع الحديث .. و يريان الرجل يعود إلى الكونتوار أمام مائه المعدني ..
يقول سلمان لصاحبه
- أما آن لنا أن نرحل .. فقد اطلعنا على المكان لقد أصبحت أنفاسي تضيق الآن..
يشير الصديق للنادل ..
و في الخارج يتنفسان الصعداء.. يشيران إلى سيارة أجرة .. تتوقف.. خلفهما الحارس الشخصي لمعالي الوزير يسجل رقم سيارة الأجرة.. و يعود إلى مكانه قرب كأسه على مبعدة من وزيره.

IX

خديجة ..
شكرا على رسالتك الأخيرة. تأبين إلا أن تضعيني دائما في الصورة ..
يشغلك دائما سلوك سلمان أكثر من سلوك الرجل الذي يجهل حتى مجرد وجودك في مكان ما من الحياة.. تقولين إنه يقرأ كتبا لم تكن قط محط اهتمامه و يقرأ الروايات البوليسية و روايات الجاسوسية و التحقيقات التي كتبت عن الاختطافات..
و عندما تسألينه يهرب من الجواب أو يرد إنها مجرد مطالعة و أن لهفته الجديدة على قراءة هذا النوع من الكتب تجاوز مجرد المطالعة ..
قلت إنه قد أصبح يقرأ كتابا كل ليلة ..
دعيني أمازحك و أقول إنه سيصبح مؤلفا عندما يقرأ ألف كتاب و ينساها.. و سيصبح ذا باع .. جميل أن يقال عنك الرسامة زوجة الكاتب ..
يعجبني هدوء زوجك. إنه أكثر تطورا وتحضرا من عدد كبير من الرجال. لو كان غيره لحملك مسؤولية ما حدث.. لأنبك عن تفكيرك في الذهاب يومذاك إلى ذلك المكان..
و مع ذلك فأنا مثلك منشغلة عليه. نعم. إنه نشاط غير معتاد و غير طبيعي. لا شك أن فكرة ما تدور في دماغه.. لربما يفكر في الانتقام.. لا عليك. دعيه يفكر ما بدا له. فالرجل بعيد المنال. دعيه يقرأ ويبحث و ينقب إلى أن ييأس ..

دعيه ..
سيدرك أنه يراهن على حصان أعرج. و سيعود إلى حياته ليتابعها.
سيعود إلي فتح عينيه كل صباح ليجد على كاهله يوما إضافيا جديدا..
لا شك أني أهذي يا خديجة.. قد يعتقد زوجك أنه يسلك الطريق الصحيح, و يتمادى في إصراره إلى ما بعد القراءة .. إلى الفعل .. لعل قدره سيرسم يومذاك .. لعله الآن يركض إلى ضياعه دون وعي منه.
حاولي أن تعرفي يا خديجة ما يدور بخلد الرجل. مارسي إغراءك القديم و استلي منه اعترافا .. كلميه كثيرا.. حثيه على الكلام. على الثرثرة حتى..
اجعليه يثرثر. فلا بد لكلمة ما أن تنفلت منه وتكون هي لحظة التنوير لعقدتكما..
عاتبيه على صمته. على حزنه. قولي له ليس من حقه أن يدع الحزن يدمره. أخرجيه منه.
عشرتكما جعلتك تشعرين بشيء, صدقي فراستك لأنها لا تخطئ .. و دعي عنك الإغراق في الدعاء له.. فالدعاء لا يكفي لكي يكف عن تخطيطه الأهوج إذا كان هناك تخطيط.. تحركي. افعلي أي شيء . تحركي أرجوك!
أنقذيه منه. إنه مقبل على فقدان البصيرة..
الساعة الوحدة و النصف صباحا...
لم أستطع أن أنام. قلت سأتابع الكتابة إليك.. لست أدري ما سأقول لك في السطور اللاحقة.. حكايتك تؤرقني منذ أن تلقيت رسالتك الأولى و رسالتك الثانية زادتني أرقا..
إني أفكر في زيارتك. وضعك أكبر من أن تكون الرسائل فيه شافية. لا بد أن نلتقي و أن نتحدث.. لا بد أن أرى يزيد.. هذا الشخص الأسطوري الهابط من كوكب غير الأرض..
أنا إذن سآتي إليك. هكذا قررت الآن.. كثيرا ما تزج بي رسالتك في حلم بالبطولة و الدم والهتافات.. كثيرا ما أتمنى أن تتلمس يدي قبضة خنجر .و كثيرا ما أشعر أننا من وطن آخر. غريبان في هذا البلد الحافل بالضرب على القفا..

لذا أراك. أراني. أرانا نتصاعد كهدير الأقدام الحافية.. و نهيج نحو يوم دافئ هادئ لا ضجة فيه لصوت و لا لحشرجة بكاء.. أراك وأراني و أرانا تحمل ريحا عاتية تعصف باليد التي عبثت بلواعج الروح..

أنا أهذي .. أليس كذلك ؟

تأكدي يا عزيزتي أن حكايتك هذه لو عرفها الآخرون مثلما نعرفها لقامت الدنيا و ما قعدت.

سأتوقف عن الهذيان. و سآتي إليك. و أحاول دون أن أدري كيف أن أختصر آلامك رغم أن لدي إحساسا غامضا يهمس لي في كل وقت و حين أن خلاصك آت وأن مصدره لن يكون سلمان بقراءاته عن العصابات أو أنا بهلوساتي.. شيء في داخلي يقول لي إن الخلاص آت من يزيد.. هذا الذي لا يقول شيئا محددا و مع ذلك يغمرك بشعور أنت عاجزة عن تحديده و بعده يأتيك نوع من الطمأنينة.

لست أدري لماذا و لكني أشعر بدنو نهاية هذه الدراما.. و سيعلم بعدها معالي الوزير أنه أخطأ الطريق.. سيعلم أن الوقت الذي قضاه في غير الحب وقت ضائع.. سيعي أنه أحب نفسه أكثر من اللازم و دخل مغامرة دامت عمره كله. و عندما يعي ذلك يكون السيف قد سبق العدل..

مازلت أهذي يا خديجة ..

اعذريني ..

سأدعك الآن و أعود إلى فراشي لعلي أنام..

معذرة إن أنا تماديت في تعذيبك بهلوساتي

X

<u>الثلاثاء</u>

أثارني البارحة شخصان كانا يتحدثان عني دون شك.. في البدء قلت إن الأمر طبيعي جدا أصبحت أمامهما شخصا من لحم و دم بعد أن كنت مجرد صورة تتحرك في التلفزيون..

عندما أطالا التحديق و الحديث قلت إن في الأمر شيئا يجب أن أعرفه.. لعلهما فطنا إلى إصراري على معرفة حقيقة أمرهما. و غادرا المقصف..

بعثت خلفهما حارسي الشخصي فجاءني برقم سيارة الأجرة التي امتطياها.. و قال سائق السيارة بعد ذلك أنه أنزلهما في وسط المدينة..

حيرني أمرهما قليلا .. ثم نسيتهما ..

إن في الأمر شيئا..

إذن علي أن أكلم من يهمهم الأمر.. يجب أن يعثروا عليهما و أن يعرفوا ما يرميان إليه..

هذا ليس مجرد قول.. لقد بدأت و استشرت صديقي داني..غريب أمر داني هذا.. أتدرون ماذا كان رد فعله ؟

اضطجع على الكنبة و طلب مني أن أحشر شريطا لزهرة الفاسية في المسجل .. و قال :

- أتريد أن أكلمك بصراحة.. أم تريد أن أجاملك

- بصراحة طبعا ..
ضحك عاليا .. و هو يهز رأسه على إيقاع الأغنية
- الناس لا يحبونك.. هم يضحكون من نوادرك. من الحكايات الطريفة التي تروج عنك.. تلك الحكايات التي تأخذ شكلا جديدا كلما تغير راويها. يخافون منك لأنك تملك سلطة العقاب دون أن يسائلك أحد.. لكنهم يشمئزون منك.. يتقززون من رؤيتك .. يتمنون أن يأتي يوم يتخلصون فيه منك..
صرخت ..
- كفى !
ضحك هو و أضاف :
- أرأيت كم الصراحة مؤلمة ؟ .. لا أحد يستطيع تحملها .. لقد انتهى شريط زهرة.. أعندك شريط لريموندا البيضاوية .. إني أطرب لها كثيرا ..
حشرت شريطا لريموندا البيضاوية. و همست له
- أنا ! أنا الذي وهبت حياتي لخدمة الوطن. أنا الذي أعطيت بلدي طاقاتي كلها و راحتي .. أكافأ بالكراهية !
أنا !
لكن لا عليك.. بقدر ما أضحي في سبيل بلادي بقدر ما أرغب في الحياة على شاكلتي .. أنا أحب النجاح .. أحب المجد .. أحب النساء ..
قاطعني داني ..
- نساء الآخرين يا معالي الوزير.. و هذا ما لا يرضاه لك منصبك.. و أي أنواع الآخرين؟.. الضعاف الذين لا يملكون القدرة على مواجهتك ..
أغاظني داني .. مددت يدي إلى المسجل. أخرست صوت ريموندا .. و قلت له بصوت خافت.. غاضب ..
- من لا يملك القدرة على المواجهة لا يستحق أن يعيش .. من يتدثر بخوفه و يصمت لا يستحق الكرامة.. يكفيهم فخرا أني أقيهم بعملي و مجهودي و كدي و تعبي شر الفاقة و شر الاستعمار .
حدق في داني .. و قال :

- أنت الذي طلبت مني أن أحدثك بصراحة يا معالي الصديق, حقيقتك لن يستطيع أن يقولها لك غيري. أنت و أنا يا عزيزي من طينة أسماك القرش.. نحن نراقب الحواس الخمس للناس. نراقب حاستهم السادسة حتى.. و يجب أن نعرف حقيقة مشاعرهم نحونا حتى نعرف كيف نتصرف عند الاقتضاء. لا تنزعج من قولي.. فأنت تؤمن به في قرارة نفسك.. حاول أن تتفرس في وجوه الناس و أن تقرأ نظراتهم ليصلك صدى نفسك. أنا و أنت يا معالي الصديق نختزل بلدا فقد قلبه ..
هل تستطيع الآن أن تتوصل إلى جمال الحقيقة و لو كانت مرعبة ؟
عندما أفكر فيك جيدا أرى نفسي. و أرانا نختبئ خلف المال و النفوذ ..
ثم عاد إلى ريموندا .. و قال ..
- دعني أسمع هذا الصوت الجميل و بعدها سأعطيك ما أراه حلا لمشكلتك ..
أفرغت له كأسا .. بعد جرعتين قال ..
- أنت أوقعت جراحا كثيرة بشعور كثيرين.. قد يكون الشخصان اللذان يؤرقانك الآن من ضحاياك.. و قد يكونان ضحيتين صعب اندمال جرحهما.. لذا من الصعب التنبؤ بما يحيكان لك.. ابدأ بتحصين نفسك أولا. اخرج من تهورك واستهتارك بالخطر الذي يطل عليك من عيون الناس.. و حتى من عيون المحيطين بك..
لعل داني على حق. علي أن أحصن نفسي أولا - وثانيا ؟ سألت داني ..
- ثانيا ؟ .. قال و ضحك
يصعب على من هو مثلنا أن يطبق ثانيا هذه. أكتف بأولا.

XI

عزيزي حليم ..
لا شك أني أزعجتك و أزعجت الأصدقاء هناك.. أنا آسف.. رسالتك الأخيرة كانت بليغة و بينت مدى متانة الروابط بيننا. لا شك أن الطريق التي عبرناها معا من الاجتماعات السرية إلى السجون إلى الحرية السجن نحتت في كل منا الآخر ..
قديما كنا نحلم و نفكر في غد على مقاس أحلامنا .. و كانت أحلامنا تسع الوطن ..
اليوم أنا أحلم على مقاسي و أجدني عاجزا عن تحقيق هذا الحلم ..
و اليوم ها أنا أزج بأصدقائي في الكابوس. مرحبا بك أنت و دافيدوف
لا حاجة لأن أكررها. أنت تعلم أن البيت بيتك. و أن من يراك يراني
من يراني يرانا ..
كل ما في الأمر أني أبحث عن التوازن المفقود في بيتي و في نفسي ..
لقد أحالنا معاليه إلى غريبين يضمهما سقف واحد
لقد وقع ما وقع .. و قضي الأمر .
ما أسعى إليه الآن هو البحث عن كيفية الحصول عن لحظة فرح .. فقط أريدها بأي ثمن ..
ليكن بالانتقام حتى ..

- ...نظركما لنتدارس الأمر جيدا.. أنا أتوفر على خطة, إلا أني كلما
...ت التفكير فيها أجدها أضعف من أن تصيب.. إلا إذا أسعفتنا
...صدفة أو القدر بعملية تشفي غليل الكثيرين.
...ل ايام كنت أنا و أحد الأصدقاء في مقصف فندق النعيم.. و هو فندق
...تاده معاليه ليرفه عن نفسه
...م عدنا مرة أخرى إلى نفس المقصف.. لم يكن الوزير هناك .. ما إن
...خلنا حتى اقترب منا نادل .. و قال :
- أنتما اللذان كنتما تطيلان التحديق في السيد الوزير
كيف عرف ؟ نظرت إلى صديقي .. أضاف النادل
- لقد بعث وراءكما حارسه الشخصي.. و استطاع بعد ذلك الوصول إلى
...ائق سيارة الأجرة الذي حملكما و يبدو أنه لم يستطع سوى معرفة أين
...طتما من السيارة ..
...ذ ذلك اليوم و هو يأتي بأربعة حراس. لذا أثير انتباهكما أنكما
...رضان لخطر حراسه ..
اندهاش!. و انبعاث شعور بالتحدي. قرأت ذلك في نظرة
...ديقي و قرأ ذلك صديقي في نظرتي..
قرأنا معا في نظرة النادل شيئا كالرغبة في القتل
...ل النادل :
- الأن اذهبا .. و إذا أردتما أن نلتقي في مقهى ما لنتحدث بتفصيل أكثر..
و ذهبنا ..
...ست أدري لم اخترت. و لست أدري لم وافق صديقي على أن نلتقي في
مقهى" السقيفة " الكائن بشارع الحسن الثاني القريب من العمارة ذات
المصعد الذي رسم منعطفا في حياتنا..
كان النادل في الموعد.
...حدثنا .. للنادل حكاية بدوره مع معاليه. رجانا أن لا نسأله عن تفاصيلها
و قال إنه على أتم الاستعداد للدخول معنا في أي مخطط يهدف إلى جر
أذن معاليه ليعلم أن الإنسان يرفض أن يهان من طرف أي كان ..
...ريد أن نعطيه درسا عمليا في كيفية التعامل مع الآخر ..

هذا الرجل سيفيدنا كثيرا. فهو يعرف الكثير عن عادات معاليه. و يعرف طقوسه.. و إذا جئتما أنت ودافيدوف سنكون مجموعة .. و سنخطط كما كنا نفعل في الأيام الجميلة ..
لن يهنأ لي بال حتى يصاب الرجل بشرخ في اعتداده بنفسه, حتى ينهار الجدار الذي يشيده حوله. و كلما سعيت إلى جس النبض اكتشفت بأن الحاقدين عليه يزداد عددهم يوما بعد يوم لأسباب شخصية.. بعيدا عن الرؤى السياسية..
و مع ذلك فأنا خائف مرتعب. و أعي أن الشخص عندما يخاف يصبح خطيرا و لا أحد يستطيع أن يتنبأ بما قد يصدر عنه.. هو نفسه لا يستطيع ذلك.. أعي ذلك عزيزي حليم. و أحاول أن أحتوي خوفي. أسعى إلى عدم الدخول في حماقة تمتد عقباها إلى غير المعنيين بالأمر.. و أعي أن في داخلي.. كما في داخل كل منا قاتلا.. يكفي أن نعثر على الزناد لتنطلق الرصاصة.
أنا في انتظارك عزيزي حليم. في انتظارك أنت و دافيدوف لنتحدث. لنتبادل الأفكار.. لنحدد الهدف. و بعد أن نحدده تحديدا لا يدعو للجدال, ننساه تماما و نركز على وسائل تحقيقه.. أتذكر ؟ لقد كنا نردد ذلك في اجتماعاتنا القديمة ..
و من يدري لعل هذا الرجل يجمعنا بعد أن فرقت بيننا الأيام.. لعله بفعلته تلك يقدم لنا خدمة قد نجني ثمارها لاحقا..
عندئذ سنشكره على ما قام به.

XII

يخططون .. منهم من يفكر في المنجل على غرار رجل تازة الذي يحكى أنه كان يرسم علامة على مؤخرة الأعيان بمنجله فيتحملون و يصمتون.. كان يفعل ذلك كلما اختلى أحد بخليلته داخل سيارته في منطقة خالية كان يعتبرها منطقته.

منهم من يفكر في استعمال السلاح على الطريقة الأمريكية. و منهم من يفكر في شيء آخر لإلحاق الإهانة بالرجل. كأن يغتصبوه جماعة و يأخذوا له صورا يشترون بها صمته..

منهم من يفكر في وسائل أخرى ..

يفكرون و يجهلون أن الأمر قد قضي. و أن الواقعة آتية لا ريب فيها المسألة مسألة وقت فقط لا غير..

لن أقول ذلك لخديجة ..

و لا يجب أن تعلم. و لا يجب أن يعلم غيرها ما لن يصدقه أحد..

أنا الآن .. في هذه الغرفة الصغيرة الفسيحة, أستطيع أن أرفرف إلى أي مكان .

أستطيع أن أدخل إلى بيت معاليه دون أن يراني .. أستطيع أن أراه دون أن أراه .. أتفرج على نزواته أسمع لغوه. حديثه مع صديقه المدعو داني مثلا .. لقاءه بعد ذلك بسكرتيرة جديدة في شقته, أستطيع أن أخلع بدني جانبا. و أرى بعين هي غير العين. ثم أرجع إلى ذاتي..

و عندما أعود إلي أجدني أقتعد الأرض.. متعبا كمن قضى اليوم في الركض. و أغفو قليلا.. لا .. لا أغفو قليلا بل أذهب في نوم عميق .. و عندما أفتح عيني يكون ميعاد العمل قد أزف..
أرتدي بذلتي البيضاء و أخرج إلى المقهى. أفطر و أتوجه إلى عملي ..
و عندما أنهي عملي أمارس الرياضة و أجاهد أنا دائما أجاهد.. و لأني أجاهد أصل إلى الذوق و من ثمة إلى الكشف..
هو قول غامض لن تدرك خديجة فحواه.. و لن يدرك سلمان فحواه.. و لا دافيدوف.. بدوري لا أستطيع شرحه لغيري. فما أعيشه حالات لا يد لي فيها ..
أراني. لا أراني.. بل أحسني.. لا أحسني بل.. ياه كم تضيق العبارة !
أعيش لحظة هروب الصوت من الرجل .. يحدث ذلك في جمع غفير حيث يأمر أحدهم بأن يفسح له المجال ليلقي خطابا, أراه يأمر أحدهم أن يقدمه و يلح عليه في أن تكون الديباجة في مستوى اللحظة. يبدأ الإطراء . يبدأ منح الوزير صفات لا وجود لها في غير الخطاب .. و عند كل صفة تتعالى الهتافات و التصفيقات و بعد التصفيق يتقدم معاليه . يقف أمام الميكرفون ويصفق الحشد. يصفق. يصفق. يصفق. يشير بيده لهم أن توقفوا عن التصفيق.
يحدق في الحشد . يرتجف قليلا.لعل إحساسا بأن هناك من يتربص به الدوائر.. يرتجف أكثر. يسعل و يصمت الجميع.
كلهم يعلمون أن من عادته الدخول في الموضوع فورا و يعلمون أن من عادته أن يبدأ القول قبل أن ينهي الحشد التصفيق.. و ها هو يأمرهم بالصمت فيصمتون.. و ها هم ينتظرون أن يقول .. لا أن يرتجف .. ينتظرون ..
أمام الميكروفون يحاول أن يتكلم .. يصدر عنه صوت .. ما يصدر عنه ليس كلاما. لا يشكل حرفا واحدا. من حروف الأبجدية غير الألف . ألف ممدودة .. الألف الممدودة تتمدد أكثر.. تصبح كصرخة ألم و ما هي بصرخة ألم.. تتمدد الألف أكثر فأكثر. لا يفهم الحشد. و تنبعث الهتافات لمداراة الوضع.. و تلي الهتافات تصفيقات.. ثم تتوقف الهتافات. و تتوقف التصفيقات و الرجل لا يتوقف عن مد ألفه.. لا .. إنها صرخة ..

لا . هي ليست صرخة.. لا أحد يعلم ما يحدث.. يهمس البعض أن الوزير أصابه مس من الجنون. أحدهم يفكر أن الرجل لم يعد يتحكم في صوته.. و آخر يفكر في إخراس الميكروفون.. و آخر يفكر في سحب الرجل من المنصة. و آخر يفكر دون أن يفكر..

يحتارون في أمرهم.. لكنهم في النهاية يهتدون إلى قرار. يخرسون صوت الميكروفون. يجذبون معاليه من الحفل الخطابي.. و يهرع أحدهم إلى طبيب يطلب مساعدته فالرجل لا يتوقف عن مد ألفه الصوتية.

يطل رجل يحمل محفظة. يفتحها. يخرج حقنة.. يغرسها في ذراع الرجل اليمنى.

تواصل الألف امتدادها وسط حيرة الجميع. يخفت الصوت و تمتد الألف.. يبح الصوت و تتمدد الألف.. يتلاشى الصوت.. و يغمض معاليه جفونه..

و ينفض الجمع ..

أعود إلي. و أشعر بالتعب.. و أغفو. أنام.. و لا أرى فيما يراه النائم شيئا ..

هل أقص حكايتي هذه لخديجة ؟

لا. لا أستطيع.. بل أكثر من ذلك. عندما أكون في حضرتها تغيب عني كل الأحداث التي أعيش في حالاتي الخاصة جدا..

XIII

تتوقف الحافلة في محطة أولاد زيان.. المحطة كتلة من ضجيج
و صراخ و محركات تزأر و حافلات تزمر .. و الناس. الناس. الناس
يهمس حليم لدافيدوف ..
- هل تصدق أني هكذا أتصور الحشر..
ينظر إليه صديقه بابتسامة غامضة ..
يقول لسائق التاكسي
خذنا إلى مقهى السقيفة بشارع الحسن الثاني.
يتذمر السائق من حركة المرور. يلعن العابرين. يمتعض من سائقي
الدراجات هوائية كانت أم نارية و من عدم احترامهم لعلامات المرور
يشتم امرأة. لم يدر حليم و دافيدوف ماذا فعلت المسكينة
يقول السائق :
- يحق لأولي الأمر أن يعفوا الميزانية العامة من هذه العلامات و
الإشارات الضوئية فلا أحد يحترمها.. لا أحد.. و يقولون حوادث السير
كثيرة في بلادنا ..
أمام مقهى يتوقف. و يشير إليها قائلا :
- ها هي مقهاكما ..
يطلبان قهوة سوداء ..
ينظر دافيدوف إلى ساعته ..

قبل عودة النادل إليهما بالقهوتين يطل سلمان و معه ابتسامة تقول مرحبا بأهل الجنوب..
عناق ..
سؤال عن الأحوال.. عن الصحة. عن الأسرة. عن الرحلة. عن الطريق.. تعبير عن الفرحة باللقاء. استعادة للذكريات الخالية. دغدغة لما مضى من المقالب. تذكر ضاحك لأيام زوار الفجر و الزنازن.. دعابات عن عدم فهم رجال الشرطة آنذاك لمفاهيم الحتمية التاريخية و المادية الجدلية إلخ إلخ إلخ إلخ ...
ثم ...
يطل صديق سالم صاحب فكرة المنجل.. مصافحة. تقديم. تبادل العبارات الأولى لجس النبض و تلمس الخطى نحو علاقة أعمق..
ثم ...
يطل نادل المقصف.. تقديم. تبادل العبارات الأولى لجس النبض و تلمس الخطى نحو علاقة أعمق ..
ثم ...
يقترح دافيدوف مكانا أرحب للحديث. دافيدوف لا ينسى أن للحيطان آذانا.. كلهم يقبلون اقتراحاته.. ويعرض النادل على الجميع شقته. النادل عازب. و النادل سعيد باللقاء بهذه الفصيلة من الناس. هذه الفصيلة من الناس سعيدة بعثورها على مكان تتحدث فيه بكل اطمئنان..

لا يرى دافيدوف ذاك الشخص القابع في الزاوية اليسرى من المقهى.. الشخص القابع في تلك الزاوية يرى دافيدوف . يذكره جيدا. صحيح أن الزمن فعل فعلته. لكن ملامح الرجل لا تزال أمينة لشبابها..
الشخص القابع في تلك الزاوية يعرف سلمان.. ويعرف حليم, صديق سلمان و دافيدوف منذ زمن بعيد.. لا يعرف صديق سلمان و لا يعرف النادل.
ـفقة من شيء مجهول تقول له إن ما يشغلهم هو الموضوع الذي حدثته عنه كثيرا خديجة.. يعرف أنهم يتدبرون أمرا.

يعرف أن من هؤلاء من يسعى إلى إطفاء نار تقضم داخله و يعرف أن من هؤلاء من يسعى إلى تلبية نداء داخلي يرفض الظلم و يتطلع إلى جزاء كل من يعتقده ظالما.
يرى في هؤلاء غضبا ينضج على نار هادئة..
الشخص القابع في تلك الزاوية اسمه يزيد.
لا أحد منهم يعرف أنه معهم الآن.. و أنه الوحيد الذي يعرف نواياهم..
فهل إذا التقت نظرته بنظرة دافيدوف سيعرفه ؟
يرفع دافيدوف بصره إليه.. هكذا دفعة واحدة.. لكن النظرة تعبره كما تعبر وجوها عديدة في مقهى السقيفة. يراهم يزيد يقفون. يتسابقون على الأداء و يخرجون تباعا..
يراهم. و يبتسم.
لا يرونه .

في شقة النادل مجال للحديث طولا وعرضا عن معالي الوزير.. يبدأون بالحديث عن طرائفه .. عن بهلوانياته أحيانا.. عن تعامله مع البسطاء.. يتحدثون عن شهرياراته.. وعن قراقوشياته .
القراقوشيات مربط الفرس.
- كيف سنتدبر أمورنا ؟
يقول دافيدوف
و تأتي الأجوبة تباعا. المنجل.. صاحب المنجل لا يريد الموت لغريمه.. يقول :
- أريد أن يعيش بالأثر على مؤخرته.. أريده أن يقاسي جزءا مما يقاسيه ضحاياه..
تأتي الأجوبة تباعا. القتل. يقول حليم..
- قد يعيش برسم على مؤخرته و يزداد طغيانه تحتد رغبته في الانتقام و يكثر عدد ضحاياه و لن نملك أن نعيد الكرة مرة ثانية.. يجب أن نضع نقطة لحياته ثم نتدبر أمرنا ليعرف الخلائق أن هذا الرجل لم يلق سوى جزائه.
تتوالى المناقشة.. ينبغي أولا أن يتفقوا على الوسيلة قبل أن يشرعوا في مناقشة كيفية التنفيذ..

تنتظرهم لقاءات متعددة لضبط أمورهم. هم يعلمون ذلك.. حتى لا يكون قرارهم سريعا. يقررون تحديد موعد لاحق لمتابعة النقاش.

XIV

زينب تضغط على الزر.. يأتي صوت من الأنترفون

- من ؟

- أنا زينب ..

- ياه ..

تكررها خديجة مرات و مرات.. و تفتح الباب

ترتمي زينب في حضن خديجة,,

- ها قد فعلتها و جئت ..

- منذ أن توصلت برسالتك و أنا أنتظرك. كنت أعلم أنك ستفعلينها..

حديث الصديقتين ذو شجون ..

و خديجة ..

- لأن قلبك من الطراز الرفيع. تختلفين عن الأخريات. لأنك تملكين القدرة على رؤية الحقيقة تستطيعين أن تفهميني.

و زينب:

- و لأن قلبك من طراز خاص.. لأنك تختلفين عن الأخريات لأنك تملكين القدرة على رؤية الحقيقة تستطيعين أن تفهميني..

كلام من هذا القبيل.

بعده تأتي صينية الشاي و الاستراحة و مشاهدة التلفزيون و انتظار سلمان.

يصافح زينب. يسأل عن أحوالها.. يرحب بها. تلمس الصدق في ترحيبه بها و تلمس نوعا من الارتياح.. و تقرأ في عيني الرجل بريق الفرح بلحظة خلاص قد تمنحها زيارة زينب.
لعله في حاجة إلى زيارتها أكثر من خديجة. هكذا تفكر زينب..
ينسحب سلمان إلى غرفة النوم. و تجلس الصديقتان و أمامهما شاشة التلفزيون.
الأخبار ..
الأحجار الأساس. الأسابيع الثقافية حيث تزدهر التبوريدة و العيطة و معارض لبيع السلع.. أي سلع.. ومباريات كرة القدم. و سباق مئات الأمتار. فقط لا غير.. والاجتماعات و الاستقبالات.
تخشى زينب أن يظهر الوزير و ترتبك جلستهما. ثم تتمنى أن يظهر لتقرأ على سحنة صديقتها ما قد يساعدها على مساعدتها.
و تبرز فكرة..
تدعو خديجة صديقتها إلى مرسمها.. منذ أن حدث ما حدث و هي تصارع لوحة ترفض أن تنصاع لريشتها..
تقف زينب أمام اللوحة العنيدة تتأملها و تدخل في صمت متحرك.. تتحدث إلى نفسها و كأن الرسامة غير موجودة.. تدخل في مناجاة مع العمل الذي ينتظر أن تهتدي إليه يد مبدعته و تنهيه..
طزاجة الضوء. طزاجة اللون. ضربة الفرشاة. عمق. رصانة. رقة. صدق. لمسة احتجاج. ياه! بخديجة تفكك الألوان على اللوحة و تعيد تركيبها في العين. و هذا التداخل بين الذات و الموضوع.. أفكار خديجة تدور حول ذاتها.. هذه الفوضى. هذه الأحاسيس الشخصية.. وعناصر عدم الرضى..
زينب لا تعلم أن صوتها يتسرب إلى سمع صديقتها.. يبدو على خديجة التأثر و يلمع في عينيها مشروع دمعة..
- أنا ؟ .. تريدين أن تقولي إن هذه اللوحة تحفل بكل هذه الأشياء..
تنتبه زينب إلى أن رحلتها عبر اللوحة لم تكن صامتة .. و ترد :
- نعم. هذا ما بدا لي.. لا تقولي لي إنك لم تشعري بشيء من ذلك

- لست أدري.. كنت أتبع يدي و هي تخلط الألوان و هي تخط هذه الطلاسم على اللوح ..
- كأني بك تنتفضين ضد عجزك عن مواجهة موقف ما.. سلطة ما.. عن غربة ظالمة وسط ترسانة من القوانين و الشعارات و الدعوات المتتالية إلى الحق و العدالة.. كأني بك تصرخين ضد الجالسين فوق .. كأني بالرعدة في أوصالك.. و كأني بالمخاوف تحيط بك و تهربين إلى هذه اللوحة و تدعين ما يختلج داخلك يأخذ أشكالا متمازجة..
كأني بك يائسة ..
و تصمتين.. و تنشغلين بسلمان و تدارين عدم حقدك على اليد التي امتدت إليك. و أحيانا تنشغلين بانجذابك إلى صاحبها. لوحتك يا عزيزتي أناك.
لعل سلمان يعاني أقل مما تعانين.. و صاحبكما في عليائه .. لقد كنت بالنسبة له نزوة انتهت و انتهى أمرها بمجرد خروجك من المصعد.. ما يحدث ينذر بكارثة. ليست القضية قضية شخص متجبر.. إنها صورة لمعيش منحل.. متهتك.. إنها تدعو إلى القلق. لم يعد في الدنيا ما يستحق العيش من أجله.. لا يسود سوى الغباء و الشر. إياك أن تتصوري لحظة واحدة أن معاليه ذكي. إنه غبي غباء بلا ضفاف.. يعتقد أن الحق بجانبه ما دامت القوة بجانبه.. و لأن القوة بجانبه فهو لا يحتاج حتى إلى تبرير سلوكه تجاه الآخرين. لكن لا عليك. فكما أن للولادة وقتا و للموت وقتا. و كما أن للبكاء وقتا و للضحك وقتا. كما أن للزرع وقتا و للجني وقتا.. كما أن للنواح وقتا و للرقص وقتا.. كما أن للقاء وقتا و للفراق وقتا.. كما أن للكلام وقتا و للصمت وقتا.. فلطغيان معاليه وقت و للجزاء وقت..
ثم يفتر ثغرها عن ابتسامة عريضة و تقول :
- فضيلة هذه المعاناة أنها أنتجت هذه اللوحة الفريدة

XV

المقصف كبير.. المرايا تكسو جدرانه . تزيد من حجمه.. الأرائك الحمراء و المناضد الرخامية و المقاعد الصغيرة من القطيفة الحمراء. داني و صديقه يحدقان معا دون سابق اتفاق في فتاة تعبر القاعة و تقذف بردفيها ذات اليمين و ذات الشمال ..

يهمس داني لصديقه :

- سيظل الجمال دائما يدهشنا.. سيظل دائما يزرع الارتباك في الشيخوخة الزاحفة علينا ..

يقبل نحوها رئيس المقصف و ينزع بنفسه السدادة عن زجاجة الويسكي.. تقترب الفتاة منهما تجلس إلى مائدة قربهما. صديقها رجل في أواخر العقد الثالث.. أسود الشعر.. أبيض البشرة. يرتدي قميصا حريريا.

داني ينظر بازدراء إلى الرجل. صديقه يحدق في الفتاة. صديقه يشعر بأن المكان حوله يدور. يهمس

- ياه ..

يلقي عليه نظرة بطرف عينه.. و يبتسم ..

- ما بك يا معالي الوزير ؟

يهمس معاليه ..

- أرأيت هذه التحفة ؟

- نعم رأيت ..

- إذن سأتصرف ..

بإشارة من يده يقبل نحوه أحد حراسه.. ينحني .. يسمع ..
- قل لها إني بانتظارها ..
يقول الحارس ..
- لكن ..
يقاطعه معاليه ..
- نفذ ما قلت لك
خارج المقصف و داخل سيارة تتكدس الجماعة النادل يقول :
- قد يخرج الآن ثملا .. و قد يخرج صاحيا أو كالصاحي.. و سنعرف إلى أين يذهب..
- داخل المقصف.. ينحني الحارس على الفتاة يهمس لها ..
- معالي الوزير معجب بك ..
ترفع الفتاة نظرة إلى الرجل.. و تقول :
- مرسي
بصوت أكثر خفوتا ..
- و هو بانتظارك ..
لا تفهم الفتاة شيئا. يلاحظ صديقها الأنيق حيرتها و يتدخل ..
- يمكنك أن ترفع صوتك قليلا ..
يعتدل الحارس .. و يجيب
- هي المعنية بالأمر .. لا أنت ..
خارج المقصف. داخل السيارة.. يقول دافيدوف :
- لنفرض جدلا أنه سيذهب إلى الشقة في العمارة قرب مقهى السقيفة.. ماذا سنفعل؟
يرد حليم :
- لا شيء .. نحن فقط نتحرى.. نريد أن نعرف هل سيذهب وحيدا أم معه مرافقوه.. و هل و هل.. أفهمت ؟
يتدخل سلمان ..
- لنفرض جدلا أنه ذهب وحيدا ..
يرد دافيدوف ..
- ستسهل مهمتنا ..

داخل المقصف ..
يقول صديق الفتاة :
- ما دامت معي فأنا أيضا معني بالأمر
يجلس الحارس ..
- آسف ليس لدي ما أقوله لك ..
تظل الفتاة داخل حيرتها و لا تحير جوابا. تلتفت نحو مائدة الوزير و صديقه.. و تقول :
- بلغ معاليه اعتذاري.. و قل له إنه أخطأ التقدير..
يضحك الحارس الشخصي ..
- لا أستطيع أن أبلغ معاليه اعتذارك لأن معاليه لا يحب الاعتذارات ..
يقف الشاب الأنيق .. و يهمس بدوره للحارس :
- هذا سلوك غير حضاري.. قل لسيدك أن يحترم نفسه و مركزه ..
يبتسم الحارس الشخصي و يلتفت حوله ..
خارج المقصف. داخل السيارة. تتكدس الجماعة داخل السيارة و ترى ..
شخصان يخرجان يحملان شخصا ثالثا و يقذفان به خارج المقصف..
يقول سلمان :
- يحدث هذا أيضا في فندق من هذه الدرجة ..
يرد النادل ..
- ليسا من حراس المقصف.. إنهما من حراس معاليه.. لا شك أن مع الرجل امرأة جميلة أعجب بها معاليه.. و لا شك أن الرجل رفض أن يستولي معاليه على صديقته..
داخل المقصف .. يهمس الحارس للفتاة ..
- معاليه في انتظارك .. أرجوك أن تدركي أن ما ينتظرك يمكن أن يكون ضربا من النعيم أو ..
بعد هنيهة ..
- أنت ليبية و بالإشارة تفهمين
تسري القشعريرة في كل جسد الفتاة ..
تكاد أنفاسها تختنق.. تنهض و تتوجه نحو معاليه.. يبتسم لها و يقول :
-اجلسي .. مرحبا ..

تجلس دون أن تبوح بكلمة ..
يصب لها كاسا ..
لا ترد. لا تستجيب للكأس الممدودة لها .. تبحث عن صوتها.. و بصوت أجش تقول :
- أنت تصيبني بالغثيان يا معالي الوزير
يظل الوزير صامتا
تتلعثم الفتاة .. و تضيف :
- أنا منذ اللحظة أجهل مصيري. لكن اعلم بأنك لن تنالني.. و اعلم أن استنجادك بهذه الفصيلة من البشر و استعراضك لعضلاتهم لن تزيدني إلا تقززا منك يا معالي ال.. ..
يتدخل داتي ..
- أنت لا تعين ما تقولين ..
تتجاهله ..
- أرفض نعيمك و جحيمك لن ينال مني شيئا
يضحك معاليه ..
ثم يطرق برأسه ..
- أنت لذيذة.. و عنادك يجعلك الذ..
خارج المقصف.. ينهض الشاب.. ينفض ثيابه . يقف أمام مدخل المقصف.. يتأهب للدخول من جديد و يتصدى له أحد حراس الوزير ..
تلاحظ الجماعة من داخل السيارة أن الرجلين يتحدثان و ترى الرجل الأنيق يحرك يديه في عصبية..
ترى الحارس يحمل الرجل و يذهب به إلى ركن قصي.. و يسدد له لكمة توقعه أرضا .
ترى الجماعة الرجل يسقط. و لا ينهض و ترى الحارس يعود إلى مدخل المقصف و يقف و كأنه ينتظر أن ينهض الرجل من جديد.
ينتفض صديق سلمان ..
- من الصعب أن يتحكم المرء في أعصابه أمام هذا المشهد.. ألا تشعرون بالغضب؟
- بلى .

يقول حليم ..
ـ هدفنا يتطلب أن نتخلى عن عواطفنا الآن..
ـ صبرك يا رجل
يقول سلمان
ـ صحيح أننا نعيش في غابة .
يقول :
ـ مسكينة المرأة التي من أجلها قذف بالرجل خارج المقصف.شيء يغلي داخل السيارة و إذا استمر يغلي فعلى الخطة السلام ..
داخل المقصف يقول داني ..
ـ أنا معجب بك أيتها الجميلة ..
دون أن تنظر إليه ترد :
ـ قل لوزيرك إني لا أخشى سلطته. قل له إنه ضعيف لأنه يعتمد على زبانيته و نفوذه.. قل له إنه لا يفهم قيد أنملة في الحياة.. قل له إنه متسلط. عبد لنزواته.. قل له إنه شخص تحركه أنانيته و تحوله إلى ذئب لا يستطيع غير مهاجمة الحملان.. قل له إن وجود أمثاله يعزى إلى الجهل السائد في هذه البلاد و فساد الجهاز الذي ينتمي إليه.. قل له إنه أصغر من أن يضبط نفسه.. إنه يسمح لنفسه أن يحقق ما يحلم به في منامه, لذا فالجانب الحيواني فيه لا ينام .
ثم تصمت.. ينظر الرجلان إلى بعضهما البعض.. تختفي ابتسامة معاليه بينما يطلق داني ضحكة عالية يقاطع ضحكته..
ـ ثم قل لي أنت.. لم يفضل صحبتك على صحبة غيرك ؟ لأنك غريب شئت أم أبيت.. و لا خطر منك يهدده.. فأنت لا تناقشه و لا تزاحمه و لا تمتعض حتى من سلوكه لأن الأمر لا يعنيك ..
ثم تصمت الفتاة ..
خارج المقصف تراقب الجماعة الرجل الممدد في الزاوية.. تنتظر.. و لا تدري ماذا تنتظر.

XVI

تقف خديجة قرب النافذة تنظر إلى الأشجار تؤرجح الريح أعاليها..
تقترب منها زينب.
- ألا نذهب إلى السقيفة لرؤية يزيد..
تلقي عليها نظرة عجلى.. و تحرك رأسها بالإيجاب
يجلس يزيد قرب الواجهة الزجاجية. باسما ينظر إلى الريح تداعب رؤوس الأشجار.. تقول زينب..
- دعيني أتعرف عليه بمفردي و اختبري فراستي..
تجول ببصرها عبر المقهى .. ترى رجلا نحيلا رشيقا و تقرأ نظرته إلى فعل الريح في الأشجار.. و تشير نحوه بإصبعها ..
- هو ..
تومئ خديجة برأسها و تزحفان نحوه.. تلاحظ أن مقهى السقيفة نظيف و واسع و أن بلاطه براق وطلاء الموائد لامع. و تحاول أن تصف الرجل فتدرك إدراكا زئبقيا أن ملامحه و سحنته تتملص منها.. فقط تستطيع أن تحاول تحديد عمره في الأربعين.. على أبعد تقدير ..
يصافحها باسما.. و يقول:
-اخرجي من محاولة رسم صورة لي في ذهنك في الحياة . ما هو أهم
و تجلس خديجة. بعدها تجلس زينب ثم يجلس هو و بحركة تكاد تكون خفية يشير للنادل بالقدوم إليه

في الخارج يبدأ مطر خفيف في تبليل الإسفلت . من الخارج يبدو الإسفلت لزجا. و يزيد يبدو لزينب رجلا يمتلك من الهدوء و رباطة الجأش ما قد يحسده عليه الكثيرون.. و تشعر برغبة في تأبط ذراعه و السير معه تحت المطر.. تبتسم لهذه الصورة.. و في هذه اللحظة يأتي النادل و يملأ المائدة بطلباتهم..
و يشرع الثلاثة في الحديث.. و بين الفينة والأخرى يسود الصمت لدقائق..
تتحدث زينب عن عودة سلمان إلى البيت متأخرا في الليلة الماضية.. و تذكر أنها لاحظته يفقد شيئا من هدوئه المعتاد.. و لاحظته أحيانا يحدث نفسه. طبعا لم تسمع ما كان يقول, و لكن شفتيه كانتا تتحركان. لاحظت أنه أمام التلفزيون, قام أحيانا بحركات عصبية من يده..
و تكرر خديجة حديثا أصبح مألوفا لدى يزيد ..
و يزيد ينصت.. و في ذات الوقت تهطل عليه صور متتالية متحركة لمجموعة من الرجال يتزاحمون داخل سيارة أمام فندق كبير و ينتظرون دون أن يعلموا ماذا ينتظرون.. و لم ينتظرون. يبدون له مجرد هواة تأثروا بما يرون في الأشرطة و يعتقدون أن قبوعهم داخل سيارة في الظلام سيهديهم إلى حل..
تسر إليه خديجة بشكها في كون الزوج يدبر أمرا. تؤيدها زينب. تؤكد المرأتان أن الرجل غير متعود على مثل هذه المناورات, لذلك, فهو كالصب تفضحه عيونه..
يرد يزيد بابتسامة على هذا التخمين الذي يراه صحيحا. و يمتزج تخمين المرأتين بالصور التي تتوالى عليه. المجموعة, تترقب أن ينهض رجل اعتدى عليه أحد حراس معالي الوزير.. لا شك أن الرجل مغمى عليه..
و لا شك أنه سينهض بعد أن يعود إلى وعيه.
تبدو له الجماعة و قد تعبت من الانتظار.. يقترح عليهم أحدهم أن ينصرفوا إذ لا يرجى من هذا الترصد غير وجع القلب. و قد يفقد أحدهم أعصابه و تنكشف الخطة.
كل ما يقوله يزيد أن لا أحد سيصيب معاليه بسوء لسبب بسيط هو أنه نفسه قد فعل ذلك.. لقد عاقب نفسه بنفسه و انتهى الأمر. ما سنرى لاحقا

هو تجسيد للعقاب فقط.. ستكبر وحدته. هو الآن وحيد. لا أصدقاء لـه.. قد يفضي بما في دواخله لشخص ما إذ لا مفر من الإفضاء.. لذلك اختار شخصا لا مصلحة له إطلاقا في استعمال أسراره ضده. إضافة إلى كون هذا الصديق يؤنبه دوما بالقول و يبارك أفعاله. و كأنه بذلك يشهد له بأن ما عليه حساب و لا عقاب.

و هو محتاج لسماع ذلك. لذلك يدع صاحبه يقول ما يشاء و يظل هو يفعل ما يشاء.. يمارس حريته بكل حرية إلى حد التطرف.. و لا من يقول له إن ذلك أفظع أنواع الطغيان..

ثم يتنهد .. و يضيف :

- لعله قدره .

يستمر الحديث.. يتوقف المطر في الخارج. تشعر زينب أنها أمام شخص حشر خطأ في هذا المكان. يشرب شايه بتأن. تشربان قهوتهما.. و تأتي لحظة الفراق.

تودعان الرجل ..

-بدا لي في البداية شحيحا في القول كقطرات الدواء

تقول زينب. و تضيف :

-إنه شخص بعيد عن الامتلاء بالذات. صافي الذهن. هادئ الأعصاب. لعله بعيش بالعمق.. أتذكرين ما قال عنك.. المرأة التي ترسم هي حتما فوق الشبهات.. ياه كم كان مصيبا حين قال ابحثا عن القذارة حيث لا يوجد الفن..

- و نبوءاته ؟ ما رأيك في نبوءاته ؟

ترد وينب :

- لست أدري لماذا يخامرني إحساس بأننا قريبا سنسمع عن معالي الوزير.. و أن هذا الخبز الملوث الذي يأكل منه سيتوقف يوما في حلقومه.. و .. هات يا تأبين و هات يا قصائد رثاء.. ستسمع روحه حماقات ردد مثلها كثيرا في حفلات تأبين أمثاله.

- أتظنين أن أمثاله موجودون ؟

تضحك زينب .. و أنت أتعتقدين أنه عملة نادرة ؟

XVII

الليلة مظلمة و أنت تجثو على ركبتيك و لا تدري لماذا. تغرق في تفكير عميق و لعلك لا تدري لماذا. تقف. تمشي من الردهة إلى الصالون. تحملق في رف كتب لم تفتح منها كتابا واحد قط. تتحسس حاشية المكتبة. و تشرد. تشرد. الشرود إحساس جديد عليك. تذهب إلى غرفة النوم. الغرفة فارغة. يسودها جو رهيب. لأول مرة تصاب بذهول.. تحشر يديك في جيب بنطالك ثم تخرجهما معا. هذه العتمة تلفك. كأنك تتألم. لا شك أن فتاة المقصف صعقتك بشدة. ذهبت إلى أبعد من الرفض. قالت لك ..

- انظر إلى نفسك في المرآة و تأكد من أنك بعيد كل البعد عن أن تكون فتى أحلام أي غانية من غواني الليل اللواتي يبعن لحظاتهن لمن يدفع..

تقف كتمثال تشعر بأنك لا تصلح لشيء .. تشعر بأنك لم تصلح لشيء قط.. تزحف نحو النافذة. يبدو لك زجاجها أكثر شحوبا منك, تتأمل أغصان أشجار الشارع ويتبادر إلى ذهنك أنها عارية من الأوراق.. تراك تشبهها.

و تصطدم نظرتك بنظرتك كليلة فاترة خشنة .

ها هي ملامحك تتدلى. و ها هو ألم لم تعهده يطل من عينيك. لم تتصور يوما أنك ستسمع خطابا كهذا الذي سمعت أمس. هل ما قالته لك حقيقة. فهل كنت أعمى و لم تلاحظ نفسك أم أن الابتسامات التي ظلت تحيط بك أعمت منك البصر و البصيرة؟. لقد تركتك ترتعد من أعلاك إلى أدناك.

أصابتك بالمرارة. بالحنق على نفسك. لماذا تتألم ؟ أ لأنك أهنت في عز سطوتك أم لأن ما قالته تلك الفتاة عراك و كشف لك عن حقيقة كنت تتجاهلها.. نجحت دائما في فرض تفاهاتك على الآخرين إلا عليها.. اعتبرت الجميع خدما لك و ظللت تفعل ما شئت إلى أن جاءت هي. و كأن قدرها قادها إليك
و كأن قدرك رماها في طريقك لتحدث فيك رجة..
تتقدم مرة أخرى نحو المرآة الكبيرة و تنظر إلى نفسك بغير قليل من الاحتقار. ثم تخيفك صورتك . تهرع إلى النافذة. تطل على الشارع فترى سحبا أقرب إلى بقع سوداء تحوم حول النجوم..
أينك أيها الرجل ! أين هيبتك و أنت تتنقل بين نظرائك و موظفيك.. أين مجدك الذي بنيته من التصفيقات و الأضواء و العناوين الكبيرة في الجرائد ؟ أين الصمت الذي يسود و أنت تعتلي المنابر و أين الضحكات التي تلي دعاباتك.
ياه !.. لماذا ترتجف يداك و لماذا تشعر اللحظة فقط أن فمك يميل إلى الجانب الأيمن؟ .. فجأة تكتشف أن وجهك حافل بالتجاعيد..
كل هذا من فعل فتاة هددتك بأن تفضح أمرك في الخارج قبل الداخل..
أتذكر ما قالته لك و أنت تواصل دعاباتك و تداري غضبك؟ أتذكر نبرتها وهي تخفض صوتها و تلقي إليك بالكلمة تلو أختها في إيقاع بطيء و تفضي لك بمخاوفك من الفضيحة خاصة إذا انتشرت في الخارج و منه ؟ أتذكر ضحكتها و هي تقول لك إن أمثالك لا يخيفهم هذا البلد المدجن حتى النخاع ؟
أتذكر عندما نهضت من أمامك و همت بالانصراف قائلة :
- إذا منعتني من الذهاب الآن فأنت فعلا رجل ضيق الأفق
- قلت في نفسك ساعتها أن هذه المرأة لا يمكن أن تكون من الغوغاء .. لا شك أن ظهرها محمي ... و أن حمايتها قوية ..
ثم أضافت :
- في صالحك أن لا يصاب صديقي بمكروه و إلا فهيئ نفسك لجزاء لم يخطر لك يوما على بال..

و ألقت بابتسامة أقسى من شتيمة. و خرجت.. لم يكن في عقلك ساعتها سوى قولها ينهبه نهبا.. لم تحرك ساكنا..
كل ذلك و صديقك داني يحتفظ بصمت مريب.. صمت صادق مع ذلك.. فالأمر لم يكن يهمه من قريب أو من بعيد..
ذهبت. و شعرت بأنك ضليع في الغباء.. لم يساورك قط إحساس كهذا. تصرفك أمس كان غير تصرفك المعتاد.. من قبل لم يكن حديث من هذا النوع ليحرك شعرة واحدة فيك.. و لم يكن سلوك كهذا ليثنيك عن عزمك..
فماذا حدث ؟
أهي بداية التحول ؟.. لكن شيئا مثل هذا لم يحدث قط من قبل ..
كانت مجادلتك تدخل في باب العبث.. كنت تقول و يوافق الآخرون .. و الآن ؟..ثم خرجت تجر قدميك جرا و تحني رأسك كلاعب مهزوم لا يجرؤ على رفع بصره نحو الجمهور ..
خرجت دون أن تعلم إلى أين أنت ذاهب .. فقدت بوصلتك.. سائقك هو الذي بادر هذه المرة و جاء بك إلى شقتك في شارع الحسن الثاني.. صرفت حراسك.. حتى اللحظة لا تذكر هل ودعت داني أم أنك انصرفت دون أن تلتفت إليه..
تحملق في السقف هذه المرة.. تبحث في جيبك عن منديل فلا تجده.. تستسلم للحظة و تشعر بتعب لذيذ..
ياه ! ..
تجلس.. تشعر بحلقك يجف دون أن تحاول الكلام.. تشعر بالرأس يتأرجح.. تحاول أن تخفي حالتك عنك.. تشعر بالرغبة في التقيؤ .. تتجشأ .. تشعر بغصة .. تبدأ جفونك في الخفقان.. و تعتريك رغبة في الصراخ إلا أن لسعا كلسع البعوض ينتشر في دماغك. و ترى صورة الفتاة أمامك
ترى عينيها تشعان ذكاء و سخرية.. و تتهدل بكاملك .

XVIII

تتذكر كيف عرفت معاليه و يعتريك شعور يشبه الخواء.. كنت مدعوا لمهرجان للفيلم. و حضرت .. لاحظت الزرابي المبثوثة في مدخل القاعة. لاحظت الورود تحرس المنصة.. و أدركت أن حفل الافتتاح رسمي. و أن مسؤولا ساميا سيترأسه..
و جاء معاليه ..
صحيح أن معاليه وزير لكن السينما لا تدخل في خانته و مع ذلك جاء,, لا بل مع ذلك سيترأس افتتاح مهرجان فني.. و قلت لا بأس..
أخذ الكلمة و اعتقدت أنه سيدخل في العموميات وأنه سيتمنى النجاح للتظاهرة و ينتهي الأمر,, إلا أن الرجل في كلمته أهل نفسه للحكم على السينما. و لاحظت أنه يمزج بين الإنتاج والكتابة وبين السيناريو و الإخراج و يتلفظ بكلمة منتج بينما مضمون حديثه يصب في اختصاص المخرج. لاحظت أنه يعتقد أن الممثل مخرج, و أن المؤلف منتج.
كانت القاعة تغص بابتسامات مكبوتة
و عندما أنهى قوله و أنهى اللقاء التقيت به في حفل الشاي الذي نظم بالمناسبة.. ثمة رأيته عن قرب تبادلتما الحديث.. و ارتاح إليك.. و اختارك صديقا..
و منذ ذلك اليوم و أنتما صديقان ..تعرفه مزاجيا.. قراقوشيا.. متعاليا.. مستبدا وتعرفه متواضعا حتى البساطة. خدوما. كريما. عاطفيا لدرجة أن دمعته قريبة جدا. جدا.

الرجل جواد رغم كونه يبادر إلى الإساءة. الأقوال تتضارب حوله. هناك من يعتبره ماردا رجيما و هناك من يرى فيه رحيما متخلقا..
دائما تقول له ..
- يجب أن تعيد النظر في سلوكك فعدد من يحبونك قليل ..
و دائما يرد :
- إذا أعدت النظر في سلوكي فسأفقدني.. أنا أحبني هكذا. لي نزوات . و أحبها هذه النزوات..
أحيانا يردد ..
-لأفعل ما أشاء و لأدع الناس يقولون ما يشاءون..
أحيانا أخرى يقول :
- إن الإنسان بطبعه شرير. و أنا لست شريرا دائما.. أحيانا أكون بالغ الطيبوبة حتى مع من لا يستحقون نعمة البقاء..
عندما لمته عن حركاته الفارغة من أي حس إنساني في المصعد. قال :
- إني أمارس ذلك على فصيلة من البشر لولا الخوف لتحولت إلى ذئاب كاسرة. إياك أن تخطئ يا داني إنهم أنذل من النذالة.
طبعا لم تتفق معه قط. لكنه يسليك. يرضي فيك شيئا دفينا. أحيانا تجد نفسك معجبا به لسبب بسيط هو أنه يقوم بما لا تسمح لك تربيتك بالقيام به..
و أمس رأيته متخاذلا.. تصورت في البدء أنه ضبط نفسه مع تلك الفتاة و كدت تعجب بقدرته على الصمت لكنك أدركت أن الرجل كان أضعف من أن يجيب. حاولت أن تستعرض ما قالته تلك الفتاة لربما استطاعت دون أن تعلم أن تضع يدها على مكمن الداء فيه.
عبثا ..
كثير ما ضاحكته قائلا :
- لست أدري لم لا أستطيع أن أكبح رأيي فيك..
و أخشى أن يأتي يوم تجبرني فيه على قطع شراييني.. إذا فعلتها يوما فلا تحرق المدينة..
- كان يكتفي بإطلاق ضحكة مجلجلة.

و أمس لم يضحك.. أمس. قد يكون أدرك أن في هذا البلد أناسا يؤمنون بأنهم لم يخلقوا ليجروا عربة معاليه.. قد يكون أدرك أن المرأة في مقدمة هؤلاء..
و أمس جاءت امرأة و كشفت له عن سوءته.. لم تقل له ما شئت لا ما شاءت الأقدار.. لم تصمت.. عندما رأيتها تبحث بعينيها عن صديقها و عندما رأيتها تهرع إليه و هو مكوم أسفل جدار, و تنحني عليه و تسعى لإعادته إلى وعيه أعجبت بها و قلت في نفسك..
- لعل الخلاص سيأتي من المرأة ..
أمس أمرك صديقك معالي الوزير أن تدعه لوحدته.. و أمر حراسه الغلاظ الشداد أن يفرنقعوا ففعلوا. و فعلت.
تدخل شقتك . تفتح التلفزيون. تصادف مسرحية لا تعرف عنوانها و تحاول أن تشاهدها. تجدها تافهة كالمعتاد. و مع ذلك تقول في نفسك..
تحملها يا داني.. تتحملها و أنت تعي تماما أن من يتحركون أمامك لم يمارسوا المسرح إلا لأنهم عجزوا عن الاشتغال بأي عمل آخر, تماما كما يفعل صديقك في مجال السياسة.. لأنك تؤمن إيمانا عميقا بأن صديقك ليس سياسيا إنه يسمي نفسه سياسيا من باب التبجح..
تضحك لفكرة تراودك الآن. المتبجح لا يجد مكانا إلا بين المتبجحين, تعجبك الصفة فتأتيك صفة أخرى. تافه و التافه لا مكان له إلا وسط التافهين. دساس. و الدساس لا مكان له إلا وسط الدساسين..
هذا البلد الذي أحببت يا داني تعترف لنفسك بأنه ساقط بين أيدي عصابات تكن لها كثيرا من البغض قليلا من التفهم .. تجد أعظمهم يمارسون الابتذال و ينتهزون الفرص لإلقاء دروس في الأخلاق..
داني .. هل رأيت حجم خيبة أملك ؟
تطفئ جهاز التلفزيون و جالسا تغط في نوم عميق.

XIX

تفرق أصدقاؤك. النادل و الزميل إلى بيتيهما وحليم ودافيدوف إلى غرفتيهما بالفندق و أنت تتمهل مترددا على مدخل هذه الحانة الجديدة. تعجز عن قراءة اسمها في هذا الليل البهيم... تدفع الباب بقدمك و تغوص في علبة ضوء. تضع كفيك على عينيك, ثم تزيحهما فترى المرأة تحدق فيك ويموج على فمها المصبوغ مشروع ضحكة.. تشجعك على الاقتراب منها.. فترى خديجة.. تغمض عينيك لبرهة, محاولا أن تبعد وجهها.. أمامها تحمل القدح و تنتظر.. ماذا تنتظر ؟

سؤالك يظل بدون جواب.. المرأة أمامك ميدان أليف مل الوداعة .. تحدق فيك .. تقول لك :

- أنت مهموم .

تتمسك بصمتك.. و تدرك هي بحدس الأنثى أنك لا ترغب في الكلام. تقضم ظفر إبهامها. تبلله بلسانها. في الخارج صقيع من نوع جديد . صمت يعزلك عن العالم و مشروع أرق لم تعد نفسك له..

تنتظر المرأة أن تصب القدح في جوفك تتأمل القدح.و لا تدري كيف تتأرجح الكأس و تسقط عن حافة الفاصل الخشبي و تتحطم على البلاط..

لا يبدو على المرأة اندهاش.. تنظر إليك دون عتاب, بل تنظر إليك بنوع من التعاطف.تقول لك :

-لا شك أن حملك ثقيل.. أنت إما عاشق منبوذ أو مواطن مظلوم. وحدهما العشق العقيم و الظلم ينتجان هذا النوع من السلوك..
تبدو لك دون مساحيق. تراها جميلة.دافئة وتستحق أن تقضي لها بأحزانك..
تبتعد منك إلى زبون آخر. تسقيه ثم تعود إليك.. تقترب منك و تلفح أنفاسها رقبتك في تلك الليلة الباردة.. و تقول :
- أفض ..
تتمسك بصمتك رغم رغبتك في الإفضاء .. تشجعك بنظرتها على البوح ..
- قل ..
تتحرك شفتاك.. تملأ كأسا جديدة, و تأتي بقطعة ثلج. بحركة متعبة من يدك تطلب منها أن تبعد قطعة الثلج..
و تقول :
- أنا جبان!
تنتظر أثر هذا الاعتراف على سحنتها ..
تنظر إليك من جديد. كل نظرة منها تختلف عن سابقتها..
- أين هي المشكلة ؟ من في هذا الكون ليس جبانا ؟ التفت حولك. كل هؤلاء الرواد يحتمون هنا من جبنهم.
يسري في قدميك ارتخاء. و تلقي نظرة في حركة دائرية تمسح الطاولات و القناني و السقف المزخرف و واجهة الزجاج و المرآة و الكؤوس والرواد.
تحدق في الكأس الثانية, و في تذكرة السعر. تضع النقود على الفاصل الخشبي. و تسحب جسدك نحو الخارج. يستقبلك ضوء المدينة الفاجر. تنزلق في شارع صغير مظلم.
في الطريق إلى بيتك تتوقف في ساحة فارغة وتنظر حولك.. لا تدري لم يأتيك في هذا المكان بالذات صوت دافيدوف من داخل السيارة :
- الآن أدركت أننا هواة.. نتصور أننا سنحقق إنجازا بقبوعنا هنا أمام الفندق. ما نصبو إليه أكبر منا.. الرجل يجب أن يختطف اختطافا والاختطاف عملية لا يمكن أن يقوم بها مثاليون مثلنا. إنها تتطلب

محترفين يقومون بعملهم دون تشنج.. نحن لن نفلح لا في التخطيط و لا في التنفيذ.. إما أن نبحث عن محترفين و إما أن نغامر ونهاجم الرجل أمام الملأ و ليكن ساعتها ما يكون.

يعود إليك صوت حليم ..

- لقد تعبنا الآن.. فلنذهب. و لنسترح.. وسنلتقي غدا لنناقش الأمر في هدوء و دون انفعال..

- تحرك قدميك و تزحف ببطء شديد نحو بيتك. لا شك أن خديجة و زينب تنتظران عودتك بوجل.. لا شك أنهما الآن دخلتا في تصور كل الاحتمالات..

ما معنى أن يخرج رجل من البيت مساء و لا يعود حتى مطلع الفجر .

في البيت كانت خديجة تنتظر عودتك.. تهمس وهي تراك..

- الحمد لله على سلامتك ..

و تندس في الفراش و تطبق أجفانها ..

تتنهد بارتياح. هي. لا أنت. تتوجه نحو المرآة وترى أثر ظلال أرق الليالي الماضية في عينيك الضيقتين. تزم شفتيك.. تتفرج على نفسك. و تراك منهارا. تراك مقبلا على مغامرة كنت تريد أن تقودها فإذا بها تقودك.

أنت في بيتك و تشعر بأنك في منفى صقيعي. والضباب يلفك.. تمد يدك إلى الأمام.. تبحث عن شيء تتكئ عليه.

XX

أنت الآن في اليوم السابع من زيارتك لخديجة. لن يكون هناك يوم ثامن. ستعودين إلى بيتك. المدينة تتدثر بالضباب و تفقد الدفء.. لذلك قضيت معظم أوقاتك أنت و خديجة بين الجدران. أشجار المدينة المتناثرة تشي بهبوب الريح وبطبيعة متوترة. أحيانا تطمئنين و أحيانا تفقدين اطمئنانك . سلمان يحتفظ بصمت تجدينه أحيانا مريبا و أحيانا تردينه إلى طبيعته المقلة من الكلام.
ستخرج خديجة من أزمتها و يخامرك إحساس بأن الفرج آت.. حتى دخول سلمان متأخرا إلى البيت في الأيام الأولى من زيارتك اختفى..
كل شيء أصبح هادئا تقريبا.. حتى الصخب الذي تشعرين به يتفاعل داخل الأسرة الصغيرة. حتى الحديث عن معالي الوزير بدأ يتلاشى من جلساتك مع صديقتك.. تلاحظين أن ظهوره شبه اليومي في نشرات الأخبار قد فتر و أن الحديث عنه في الراديو بدوره قد قل.
انطباع يزحف إليك بالتدريج و يقول لك لعل هذه الحكاية اقتربت من نهايتها..
تقررين في يومك السابع أن تزوري السقيفة لتودعي يزيد ..
رغم الضباب و رغم البرد كان هناك , رأيته تائها في سكونه الشفاف..
قالت لك خديجة ..

- أرأيت كم هو جميل ! ؟

ألوان ستائر المقهى الخضراء تكاد تنعكس على شروده.. لكنه يقف كعادته و يصافحكما.. تتحدثون عن البرد و الضباب.. و السحب و المطر المرتقب.. يرشقكما بنظرات تحثكما على الدخول في موضوع الزيارة.. يوزع عليكما ابتسامة مشجعة, يرفع فنجان القهوة إلى شفتيه.. و يقول :
ـأنا سأبدأ هذه المرة.. يبدو لي أن السيد عامر قد دخل مرحلة الجزاء..
لا تفهمان ..
يقرأ ذلك في أعينكما ..
- ألم تلاحظا غيابه عن ساحة الأخبار و التدشينات و الأحجار الأساسية !
بلى .. برأسيكما أجبتما معا .
هادئا ..
- إنه يمهل و لا يهمل.. و يبدو أن الكيل طفح.. كل من يعدون العدة للانتقام سيرتاحون الآن.
كنتما تطلبان المزيد من التوضيحات .. إلا أنه قال
- هذا كل ما عندي.. و ستكتشف الأيام القليلة الآتية أمره..
تتقززين من الضباب الذي يرتفع من البحر ويلف المدينة.. و من الصقيع الذي لم تتعوده أزقتها.. وتتلهفين لمعرفة المزيد عن عامر..
تعودين إلى البيت مع خديجة و تجدان سلمان باسما أكثر من العادة.. على أهبة الضحك من أجل لا شيء تلاحظين انفتاحا غير معتاد لديه. إنه يمزح.. و يروي نكتة. و تقولين لها عندما يخرج هو إلى الفناء لغرض ما ..
- إنه يعرف شيئا عن الرجل ..
تهمس هي
- نبوءة يزيد ..
تلقين نظرة على الشارع عبر نافذة الصالون تلمحين غيمة بنفسجية.. يعتريك إحساس برفض أن يعلن عن نفسه..
تمر الغيمة و تطل شمس خجولة.. تبتسم لك أشعتها. تبتسمين للأشعة..
- أتبتسمين لشيء ما راج ببالك ؟

سؤال تطرحه عليك خديجة ..
- للشمس ..
تجاري صديقتك ابتسامتك.. تقتربين من النافذة فيتساقط الشعاع الخجول على وجنتيك و شعرك.. تقتربين فيزحف على صدرك و قميصك..
ترين عبر النافذة المارة يختارون جهة الطريق التي تسقط عليها الأشعة.
يعود إليك انشراح سلمان.. تخطر ببالك أنه الليلة سيستعيد إيقاعا اختفى من حياته مع خديجة..
تقولين لخديجة
-الليلة سيعود إليك سلمان القديم .. سلمان ما قبل حكاية المصعد ..
تشرعين في لم أشيائك متأهبة للمغادرة.. تساعدك خديجة.. تودعين سلمان. و تنزلان معا إلى الشارع..
ترين الشارع حلبة رقص و المارة سعداء يتمايلون على نغمة جديدة..
و في بيتك هذه المرة تتمددين و تراقبين انهزام الضوء و تكاثف العتمة و تشعرين بنسيم لم يخلق من قبل يغمر غرفتك.. تتدفع إلى أنفك روائح بساتين التفاح التي تعودت على رؤيتها و على شمها منذ أن جئت هذه المدينة إلا أن روائح الليلة تحفل بطعم خاص. و تشعرين بتعب لذيذ.
فجأة يشق العتمة وجه يزيد .. و يقول لك ..
-جئت من أجلك يا زينب .
يتفجر لحظتها شيء فيك و تنهضين و تشرعين في الرقص. تدعين جسدك الرشيق يتمايل على نغمة لا يسمعها أحد سواك. و في كل انثناءة يلاحقك وجهه.. تلاحقك بسمته.. و تصابين بنوبة أقرب إلى الإغماء. فتتمددين من جديد باسمة..
تفتحين عينيك و تتسللين على رؤوس أصابع قدميك إلى الخارج. ضوء الفجر الرمادي يحييك.. تمنحين وجهك لهواء الصبح و تلتفتين إلى فراشك. تنظرين إليه بحنان جديد. و تذهبين إلى المزهرية القرمزية, تعيدين ترتيب أزهارها.. ثم إلى جهاز التسجيل تطلقين لحنا و تهيمين به.. و.. يغمرك دفء جميل..
و تتنهدين ..

XXI

لعل المرء يحدث له بعض مخبآت الدهور ما لا يخطر على بال و لا تدركه العقول, خاصة إذا لم يعمل لآخرته عمل لما يموت غدا.. لعل المرء يهتضم عرضه و يهتم قلبه و يأذن بالوهن..
لعله يجهل أنه في دار الآفات و الجوائح غير مأمونات. لعله ينسي أن للنفوذ نزوة و للسلطان سكرا وسكر السلطان أشد من سكر الخمر..
لندع قول القدماء .. و لنتابع الرواية.
آمن الرجل أن الحكمة التي تهوي من السماء إلى القلوب قد أخطأته و أخطأته لأن في قلبه خصلة من خصال أربع .. الركون إلى الدنيا . وهو ركن إلى الدنيا .
يقرأ ذلك في كتاب قديم ويهبط الدمع مدرارا
يهبط الدمع .. الدمع فقط .
تأتيه رسالة .. ترتعش يده اليسرى و هي تتسلمها من مساعدته.
يرفع نحوها بصرا هو كالبصر.. تفهم مراده و تفض الرسالة. تفردها أمامه فيتابع سطورها..
يقرأ فيها حكاية داوود ..
ما له داوود ؟
تقول الرسالة ..
كان داوود يسيح في الجبال. مر على غار فرأى رجلا عظيم الخلقة..

بعد هذه المقدمة يقرأ عبارة كتبت بحروف بارزة حمراء. و أنت لم تكن عظيم الخلقة..
و يتابع ..
الرجل العظيم الخلقة ملقى على ظهره و على رأسه حجر كتب عليه .. أنا دوسم الملك. تملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة و هزمت ألف جيش و فضضت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى .. التراب فراشي و الحجر وسادي فمن رآني فلا تغرنه الدنيا كما غرتني..
في أسفل الرسالة عبارة كتبت بحروف بارزة حمراء .. ما أن أدركها بصره حتى أخرج صوتا غاضبا .. و رمى الرسالة جانبا ..
فهمت مساعدته أنه يريد أن يغير المكان فدفعت الكرسي المتحرك إلى الصالون..
نظر إلى جهاز التلفزيون.. فأدركت أنه يريد أن يشاهد.. رأى الأخبار و هو عنها غائب .. النساء تزغرد و الأيادي تصفق و مقص التشييد يقص الشريط الملون.. وهو غائب ..
فأطلق زئيرا فأطفأت الخادمة جهاز التلفزيون
و أن ..
الخادمة كالآلة. تطيع صامتة, تعطيه ما يرغب فيه. ترفع ما يرغب عنه. تدفع الكرسي المتحرك حين يطلب ذلك. تدفعه عند ما يهز رأسه بطريقة لا يدرك معناها أحد سواها. لا تتهاون في أداء واجبها.
في آخر الخريف. كان قرب النافذة ينظر إلى الشارع من خلف ستائر اختارها بنفسه قاتمة.. كما اختار لغرفته تلك أن تطلى جدرانها بلون الضباب.
تتساءل الخادمة.. "ترى ماذا يدور بخلده الآن ؟"
يحرك رأسه يسارا فتركض إليه و تسحب الكرسي من قرب النافذة.. ينظر إلى المكتبة فتقربه منها. يمد يسراه التي تتحرك بالكاد و يشير إبهامها إلى أحد الكتب. تضع الكتاب على ركبتيه.. تفتحه .. ترى أنه لا يقرأ و إنما يحاول أن يشم رائحة الورق..
تنظر إليه ذاهلة, ها هي معرفتها تضيق عن فهمه. هكذا تقضي يومها معه..

قالوا لها يوم تقدمت لخدمته ..
- أنت المسؤولة عنه.. حاولي بخبرتك و فطنتك وقدراتك أن تفهميه.. لا نريد أن نعرف شيئا. كل حاجاتك نلبيها. يكفي أن تطلبي.
قال لها أحدهم خمنت أنه قريب له :
- كان الله في عونك. كان صعب المراس و هو معافى . و هو على هذه الحال قد يصبح التعامل معه مستحيلا.
و منذ ذلك اليوم و هي ترعاه..
لقد تحولت كل حروفه ألفا ممدودة قد تطول أو نقصر حسب الحاجة..
الذين يأتون لزيارته يكتفون بتقبيل جبهته و توجيه ابتسامة تعاطف و سؤال يرد عنه برفة رمش ويذهبون.
عددهم يتناقص مع مرور الأيام..
لا تعرف ما حدث له. و كيف أصبح هكذا. كل ما تعرف أن طبيبا اشتغلت معه طويلا عرض عليها أن ترعاه بأكثر من ضعف الأجر الذي كانت تتقاضاه.
فقبلت
أحيانا يتوصل برسالة, ما إن يقرأها حتى يرميها جانبا, و لم تكلف نفسها قراءة الرسالة. بحدسها تعلم أنها رسالة تشف. و هي تعلم أن رجلا مثله لا بد أن يكون له أعداء و تؤمن أن على من يرفض معاداة الناس له أن يبتعد عن الأضواء و المناصب..
كانت تنتظر منه أن يطلب منها أن تقرأ له شيئا فصوتها جميل و عذب و مريح و كم أحبه المرضى, لكن الرجل لم يجعل قط من القراءة هما. أو لعله لم يخرج بعد من التحسر الصامت وجوبا على وضعه.. و ستأتي القراءة في مرحلة لاحقة, أي عندما يقبل وضعه و يسلم بالمكتوب..

XXII

تحكي المساعدة, تقول :
- زاد همي يوما و كادت نفسي أن تزهق و ضاقت علي الأرض بما رحبت, فاقتربت من معاليه سابقا و قلت له :
- أنا كئيبة اليوم.. سأدعك هنا للحظة و أخرج لأروح عن نفسي ثم أعود إليك..
نظر إلي معاليه سابقا بعين مكسورة و تمتم بألفه الممدودة الاعتيادية و أدركت من ذبذباتها أنه بدوره يرغب في الخروج معي للترويح عن النفس..
قلت في نفسي ..
- و لم لا ؟
فخرجت به في الشارع فإذا بي ألاحظ أساريره تنفتح و قرأت في نظرته تعرفه على الأمكنة..
أطلق ألفا ممدودة مرحة هذه المرة.. و أعطى مشروع إشارة للسير في شارع الحسن الثاني, فقلت في نفسي لا شك أنه يحب هذا الشارع كثيرا.
سرنا في الشارع و هو يحاول أن يلتفت يمينا فلا يستطيع و يحاول يسارا فينجح بالكاد في نصف التفاتة ..
مررنا من أمام مقهى يدعى السقيفة.. أثارني شخص ينظر إليه نظرة لا تتفحصه بقدر ما تسائله.. أثارني أكثر رد فعل معاليه سابقا.. فجأة امتقع لونه و صدرت عنه ألف ممدودة تأمرني بالإسراع..

فأسرعت ..
ثم بالتوقف. فتوقفت.
أمام عمارة شاهقة زجاجية.. توقفت.. أردت أن أتابع فانطلقت الألف الممدودة تأمرني بالتوقف. وبحركة محدودة من يسراه أبلغني أنه يريد دخول العمارة. فدخلنا..
أبلغني أنه يريد دخول المصعد فاتجهت به نحوه.. سرت في مدخل العمارة همهمة. أصبحت النظرات تتوقف عليه برهة..
مرارا سمعت :
- اللي ما خرج من الدنيا ما خرج من عقايبها
و مرارا رأيت الأصابع تشير إليه
أكيد أنهم تذكروه ..
زحفت به نحو المصعد.. كان هناك رجل وامرأة.. بدا عليهما أنهما تعرفا عليه. لكنهما تجاهلاه. لم تبدر منهما ابتسامة أو نظرة تعاطف..
صدرت عنه ألف ممدودة أخرى تطلب مني أن أدفع الكرسي إلى الأمام ففعلت.. و صدرت أخرى تطلب المزيد ففعلت..
و أخرى تطلب المزيد ففعلت..
ألف ممدودة أخرى و أصدم المرأة بالكرسي وجاءت هذه الألف
ترددت أنا ..
بدا على المرأة الاندهاش فالمصعد فسيح, و نحن نزحف نحوها .. نزاحمها ..
أدرت الكرسي جانبا, أدرك هو أنني لن أستطيع أن أدفع الكرسي أكثر من ذلك و رأيت يده اليسرى تقوم بما تبقى لها من الجهد و تندفع نحو المرأة..
انتبهت المرأة إلى حركة معاليه سابقا فابتعدت .. فانطلقت ألف ممدودة من معاليه سابقا تريدني أن آخذ الوجهة التي أخذتها المرأة..
لعله يعرفها ..
فكرت ..
دفعت الكرسي نحو المرأة ..

حرك الرجل الذي يرافقها رأسه بامتعاض و أطلق من أنفه ضحكة ساخرة ..
في هذه اللحظة توقف المصعد في الطابق الذي تبغي المرأة النزول فيه..
فخرجت ..
تنفست الصعداء ..
لكن ألفا ممدودة طويلة تشبه العويل انطلقت ورفضت أن تتوقف..
كان يريدني أن أوقف المصعد و أن أركض به خلف المرأة..
عدت بالمصعد إلى الطابق الذي نزلت به المرأة و مرافقها و شرعت أدور به في دهاليز مؤسسة مالية تشغل الطابق..
موظفو المؤسسة يعرفونه.. أغلبهم كان يحدق فيه و بعضهم كان يبتسم له..
لم يكن يبدو عليه الاهتمام بهم, كان يريد أن أعثر على المرأة.
لم أعثر على المرأة.
صممت أذني عن ألفه الممدودة و عدت به إلى البيت.. أدخلته غرفته, و تركته يتابع صراخه. كان معاليه سابقا غاضبا..
قررت أن أقدم استقالتي, و أن أتنازل عن الأجر المضاعف و أعود إلى مرضاي الذين لم يكونوا قط معاليهم سابقا..
لم أتبث على البلوى.. و لم أكن صبورة كما كنت أتصور, فويل الأجر الهزيل أهون بكثير من ويل الأجر المضاعف و ألف معاليه سابقا الممدودة.
هنا ..
تتوقف المساعدة عن البوح...

انتهى

إصدارات محمد صوف

المجاميع القصصية

- تمزقات 1979
- حالات معتادة جدا 1981
- عصافير والبحث عن أوكار 1982
- دائرة المستحيلات 1986
- هنا طاح الريال 1994
- أبناء قابيل 2003

الروايات

- رحال ولد المكي 1980
- الموت مدى الحياة 1984
- السنوات العجاف 1985
- كازابلانكا 1990
- حتى إشعار آخر 1995
- دعها تسير 1997
- يد الوزير 2005

الترجمات

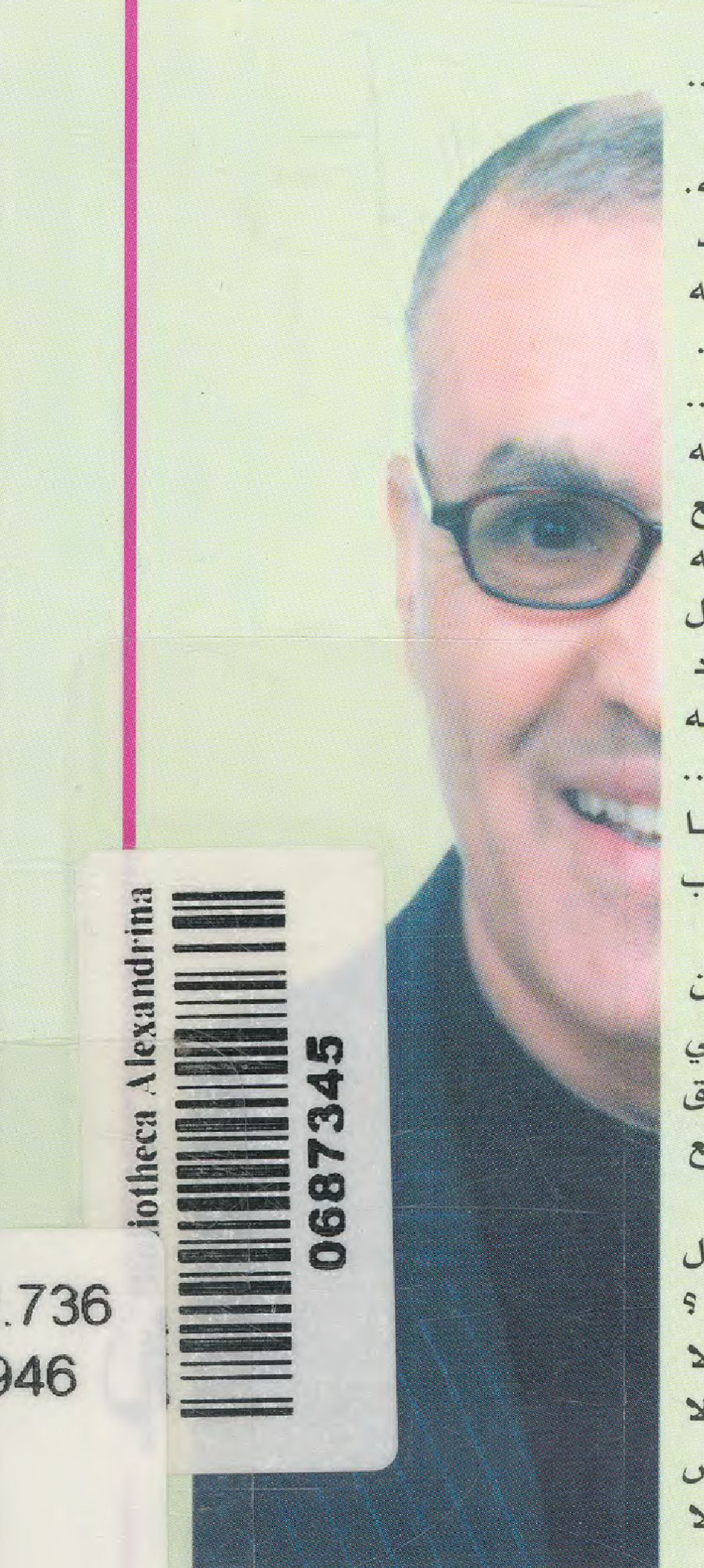
- النساء يكتبن أحسن 2000
- طفل من حقول الكاكاو لجورج أمادو 2004
- حرائق السؤال 2006

صدر عن هذه السلسلة

1- المتخيل المسرحي	- ذ . اكويندي سالم
2- الا يتام (مسرحية)	- ذ. نعيم الزعيم
3- ا لمسرح والمدينة	- د. يونس لوليدي
4- ا لمسرح في مفترق القراءة	- د. عبد الرحمان بن زيدان
5 - ا لمسرح فن خالد	- د. حسن المنيعي
6 - الطفل والصياد (مسرحية للطفل)	- د. نذير عبد للطيف
7- القفص (مسرحية للطفل)	- د. نذير عبد اللطيف
8 - الاتصال والإعلام	- د. نذير عبد اللطيف
9 - يد الوزير (رواية)	- ذ. محمد صوف

إصدارات أمنية

الدار البيضاء



- أنا معجب بك أيتها الجميلة ..
دون أن تنظر إليه ترد :
-قل لوزيرك إني لا أخشى سلطته. قل له إنه ضعيف لأنه يعتمد على زبانيته ونفوذه.. قل له إنه لا يفهم قيد أنملة في الحياة .. قل له إنه متسلط. عبد لنزواته .. قل له إنه شخص تحركه أنانيته وتحوله إلى ذئب لا يستطيع غير مهاجمة الحملان .. قل له إن وجود أمثاله يعزى إلى الجهل السائد في هذه البلاد وفساد الجهاز الذي ينتمي إليه .. قل له إنه أصغر من أن يضبط نفسه .. إنه يسمح لنفسه أن يحقق ما يحلم به في منامه، لذا فالجانب الحيواني فيه لا ينام.
ثم تصمت .. ينظر الرجلان إلى بعضهما البعض .. تختفي ابتسامة معاليه بينما يطلق داني ضحكة عالية . تقاطع ضحكته ..
- ثم قل لي أنت .. لم يفضل صحبتك على صحبة غيرك ؟ لأنك غريب شئت أم أبيت .. ولا خطر منك يهدده .. فأنت لا تناقشه ولا تزاحمه ولا تمتعض حتى من سلوكه لأن الأمر لا يعنيك ..

25 درهما